بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 17 أكتوبر 2016

مغامرة السرد الديني:
حكاية بلوقيا أنموذجًا

عبد الباسط مرداس
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

الملخص:

دخل الإسلام الناشئ في "مغامرة السرد الديني"، وذلك منذ البداية، قوّةً إقناعيّةً لترسيخ النبوّة وتثبيت شخصيّة محمد، النبيّ الكريم، سواء في المعتقد الديني الجماعي الإسلامي أو ترويج هذه الفكرة لدى أصحاب الديانات الأخرى وجعلها النبوّة الأخيرة المنتظرة والمرتقبة. هذا ما تدافع عنه حكاية بلوقيا بحدّة ومن أجلها وُضعت ورُويت في سرديات قصص الأنبياء (الثعلبي). حاولنا في هذه الدراسة قراءة ومقاربة متن هذه الحكاية الدينية القديمة الحاملة لعنوان بطل اسمه بلوقيا شدّ الرحال بحثاً عن النبيّ محمد قصد ملاقاته والدخول في دينه. تعاملنا مع هذه الحكاية بوصفها إنتاجًا أدبيًا وسرديًا بدون عزلها عن محيطها القصصي والدينيّ محاولين تفكيك تركيبتها وإعادة إنتاجها نصًا سرديًا قابلاً للتحليل والمقاربة. قصّة أضحت مسرحاً لتشكّل الخطاب الديني الوعظي والخطاب العجائبي، مُكوّنة بذلك تعبيراً جديداً اعتمد عليه الإسلام الناشئ لتوصيل تعاليمه وقيمه.

عالجنا متن هذه الحكاية من خلال التساؤلات المنهجية التالية: كيف استلهم السياق التاريخيّ الإسلاميّ الأوّل هذه الشخصية السردية وأعطاها اسماً ونسباً ومكاناً وزماناً، ووضعها داخل مغامرة شيّقة مع شخوص أخرى ثانوية، ابتداءً من الحيوان إلى الملاك ومروراً بالجنّ؟ كيف تكوّنت ونمت هذه الحكاية؟ وكيف تمّ تداولها وروايتها في بعض الكتابات الإسلامية؟ وأخيراً كيف صوّر القاصّ الشعبي الدفاع عن النبيّ الكريم داخل حكاية غريبة يريد إيصالها للمتلقّي والتأثير فيه؟ وكيف جعل عنصرَيْ العجائبي والديني يتناغمان ويكوّنان خطاباً يدافع عن سجال دينيّ في غاية الأهمية، عرفه الفكر الإسلامي الوسيط ومازالت أصداؤه تتردّد إلى الآن، ألا وهو مسألة تحريف التوراة وذكرها لنبيّ الإسلام؟ اختزلنا هذه الأسئلة المنهجية في دراستنا في ثلاثة مداخل أساسية: أوّلاً قمنا بملاحظات عامة حول نشأة هذه الحكاية انطلاقاً من بعض الفرضيات. ثانياً حاولنا إظهار المكوّنات السردية المختلفة التي ساهمت في بنائها. ثالثًا وأخيراً تطرّقنا إلى الدور الذي لعبه كلّ من الخطاب العجائبي والديني في بلورة متن هذه القصّة وتطويره.

– "فهذا ما كان من حديث بلوقيا وما رأى من العجائب في البحر والبرّ سهلاً وجبلاً والله أعلم".

– "قال بلوقيا: هذا والله لعجيب فقالوا عجائب الله لا تَنقضي...ثم سار"

الثعلبي، "عرائس المجالس في قصص الأنبياء"

1- مقدّمة[1]

أسّس الإسلام، باعتباره حدثًا دينيًا وتاريخيًا، خطاباً سردياً جسّد ودافع، وذلك منذ نشأته، عن مقولاته الدينية والعقائدية. ومن أجل الدفاع عن النبوّة الجديدة كان الإسلام في حاجة إلى الدخول في «مغامرة السرد الديني» باعتباره قوّة إقناعيّة لترسيخ النبوّة وتثبيت شخصيّة محمد، النبيّ الكريم، سواء في المعتقد الديني الجماعي الإسلامي أو ترويجها لدى أصحاب الديانات الأخرى وجعلها النبوّة الأخيرة المنتظرة والمرتقبة. هذا ما تدافع عنه حكاية بلوقيا بحدّة ومن أجلها وُضعت ورُويت. سنحاول في هذا البحث قراءة متن هذه الحكاية الدينية القديمة ومقاربتها، وهي الحاملة عنوان بطل اسمه بلوقيا شدّ الرحالَ بحثاً عن النبيّ محمد قصد ملاقاته والدخول في دينه. سنتعامل مع هذه الحكاية بوصفها إنتاجًا أدبيًا وسرديًا بدون عزلها عن محيطها القصصي والدينيّ محاولين تفكيك تركيبتها وإعادة إنتاجها نصًا سرديًا قابلًا للتحليل والمقاربة. فرحلة بلوقيا قصّة أضحت مسرحاً لتشكّل الخطاب الديني الوعظي والخطاب العجائبي، مُكوّنة بذلك تعبيراً جديداً اعتمد عليه الإسلام الناشئ لتوصيل تعاليمه وقيمه.

سنعالج متن هذه الحكاية من خلال التساؤلات المنهجية التالية: كيف استلهم السياق التاريخيّ الإسلاميّ الأوّل هذه الشخصية السردية وأعطاها اسماً ونسباً ومكاناً وزماناً، ووضعها داخل مغامرة شيّقة مع شخوص أخرى ثانوية، ابتداءً من الحيوان إلى الملاك ومروراً بالجنّ؟ كيف تكوّنت ونمت هذه الحكاية، وكيف تمّ تداولها وروايتها في بعض الكتابات الإسلامية؟ وأخيراً كيف صوّر القاص الشعبي الدفاع عن النبيّ الكريم داخل حكاية غريبة يريد إيصالها للمتلقّي والتأثير فيه وكيف جعل عنصري العجائبي والديني يتناغمان ويكوّنان خطاباً يدافع عن سجال دينيّ في غاية الأهمية، عرفه الفكر الإسلامي الوسيط ومازالت أصداؤه

1 - أشكر الصديق عمر الضعيف على قراءته المتأنّية.

تتردّد إلى الآن، ألا وهو مسألة تحريف التوراة وذكرها لنبيّ الإسلام؟[2] سنختزل هذه الأسئلة المنهجية في ثلاثة مداخل أساسية: أولاً سنقوم بملاحظات عامة حول نشأة هذه الحكاية انطلاقاً من بعض الفرضيات. ثانياً سنحاول إظهار المكوّنات السردية المختلفة التي ساهمت في بنائها، وأخيراً سنتطرّق إلى الدور الذي لعبه كلّ من الخطاب العجائبي والديني في بلورة متن هذه القصّة وتطويره.

2- في البدء كانت الحكاية

ملخّص الحكاية

يُحكى أنّه كان في مصر في بني إسرائيل رجل يدعى أوشيا وكان ذا علم وإمامة ومال، وكان له ولد اسمه بلوقيا. بعد موت أبيه نُصّب بلوقيا إماماً وقاضياً مكانه. وفي يوم من الأيام فتح خزائن والده فوجد فيها تابوتاً من حديد مقفلاً فيه أوراق تذكر نعت النبي ّمحمد وأمّته وأنّه سيبعث في آخر الزمان. عندها تعلّق قلبه بحبّه ورحل باحثاً عنه علّه يلتقي به ويدخل في دينه. وفي رحلته الطويلة التقى في إحدى الجزر بحيّات عظام وبملكتهنّ (تمليخا)، وبعد هذه المحطة التقى في بيت المقدس بحبر يدعى عفّان الخير، وتبدأ مغامرتهما بحثاً عن مُلك عظيم وحياة طيبة إلى أن يبعث الله النبيّ محمد ويدخلا في دينه. رحلة أدّت بهما إلى قبر النبيّ سليمان لكنّ محاولة عفّان باءت بالفشل عندما همّ بأخذ خاتم سليمان فاحترق بصيحة جبريل ونار التنيّن ونجا بلوقيا. ويدخل هذا الأخير مرحلة أخرى من رحلاته ومغامراته وحيداً، يبحر في عوالم غريبة ويلتقي بالملائكة والجنّ وحيوانات عجيبة، جميعهم كانوا يحدّثونه عن نبوّة محمد. وتنتهي الحكاية بعودة بلوقيا طائرًا إلى بلده بمساعدة الخضر.[3]

تنقّلات الحكاية

يلاحظ الباحث المهتمّ ببدايات حكاية بلوقيا نُدرة النصوص والشهادات التي تتطرّق إليها وتذكرها داخل مصادر الثقافة العربية الإسلامية الوسيطية. فالحكاية، وإن تناقلتها الشفاه، تبقى سرداً غامض البناء والنقل والتبليغ، ولا نملك حيالها سوى بعض الشهادات التاريخية القليلة تُسند غالباً إلى الرواة القدامى أنفسهم الذين اهتمّوا بها. فعبر أيّ متون وقنوات سافرت هذه الحكاية؟ ولماذا استقرّت أخيراً في سردين هامّين: قصص

2 - لا ندخل في نقاش هذه الفكرة القرآنية، فهذا ليس موضوع هذا البحث، نذكر فقط أنّ هناك آيات وأحاديث وكتابات وسجالات ومناظرات ونقاشات وردود كثيرة، والقرآن تطرّق إلى هذه المسألة في غير موضع وأخبر في جملة من الآيات في عدّة سور بأنّ يد أحبار اليهود امتدّت إلى التوراة فحرّفوها وبدّلوها وأخفوا منها ما لا يتّفق مع ما جاء به القرآن. وقد تناول مجموعة من العلماء المسلمين مسألة «تحريف التوراة» هذه بالنقد وحاولوا، حسب رؤيتهم، إبراز «التناقض» و«لتحريف» الموجود فيها، ومن بينهم ابن حزم وفخر الدين الرازي وابن تيمية وابن قيم الجوزية واللائحة طويلة. نضيف إلى ذلك اللائحة الطويلة من الكتب الإسلامية التي تدافع عن النبوّة الإسلامية والتي تحمل عناوين مختلفة: «حجج النبوة»، و«خصائص النبوة»، و«أمارات النبوة»، و«أعلام النبوة»، و«دلائل النبوة»، و«شمائل النبوة» التي لم يخل قرن في الكتابة فيها، بحيث يدافع أصحابها عن النبوّة الإسلامية. ويجب التذكير أخيراً بأنّ هناك فصولاً طويلة في كتب السيرة النبوية والتاريخ والمِلل والنِحَل تتحدّث عن حضور النبيّ محمد وذكره في التوراة والإنجيل.

3 - ندعو القارئ الكريم إلى قراءة المتن الكامل للحكاية في كتاب «عرائس المجالس في قصص الأنبياء» للثعلبي.

الأنبياء وحكايات ألف ليلة وليلة؟ ولماذا اختفت من كتب قصص الأنبياء الأخرى القديمة والمتأخّرة؟ ولماذا لا يذكرها الرواة الأوائل أمثال وهب بن المنبّه الذي يعتبر من الرواة الذين نقلوا لنا قصص الأنبياء في أواسط القرن الثاني للهجرة؟[4] أسئلة عديدة أخرى تخالج ذهننا نضيفها إلى الأسئلة السالفة محاولين التطرّق إلى بعضها واعين في الوقت نفسه بحدود بعض الأجوبة وامتناعها.[5]

فإجمالاً يمكن وضع حكاية بلوقيا في سياقين زمانيين: أولاً مرحلة ما قبل كتابة أبي إسحاق الثعلبي في القرن الخامس الهجري، وثانياً المرحلة التي أخرج فيها الثعلبي هذه القصّة وبعدها. فلا نستطيع جزم الكلام على البدايات الأولى أو المصادر الأخرى التي تذكر هذه الحكاية، فقد نسبت أوّل رواية لحكاية بلوقيا إلى عبد الله بن سلاّم في القرن الأوّل الهجري، ومن هذا المنطلق فنحن أمام رواية قديمة ترجع إلى بدايات الإسلام، وهنا لا بدّ من طرح بعض الأسئلة: هل الحكاية كما نقرؤها مسطّرة في العرائس هي الرواية نفسها التي كان يحكيها عبد الله بن سلام وتلقّتها عملية الكتابة منذ بداياتها في القرون الأولى؟ وهل هذه القصة كتبت بالصيغة نفسها أم تعرّضت، ككلّ الحكايات، لعمليات تحويرٍ وإضافاتٍ وإقحامِ عناصر أخرى؟ تبقى البدايات الأولى صعبة التتبّع والمنال ولا يمكن وضعها كلّها في خانة الرواية الشفوية، فهناك بلا شكّ كتابات احتضنت هذه القصة منذ البداية، لكن نجهلها، كانت تروّج في صحف أو رِقاق سمعها من سمعها ورواها من رواها منذ الأزمنة الإسلامية القديمة. فنحن لم نقم بفحص كلّ كتب التراث المطبوع منها والمخطوطات الموجودة في أمكنة كثيرة ومواقع مختلفة من كتب الحكايات والقصص والأخبار القديمة. والمستقبل رهين بتبيان أثر أو ذكر أو علامة لهذه الحكاية إما عن طريق سماع أو وجادة أو طريق من طرق رواية الأخبار القديمة كما ذكرها القدماء. فعملية الكتابة لم تبدأ فقط في القرن الثالث أو نصف القرن السابق، ومتن هذه الحكاية ربّما تناولته أيدي رواة القرن الأول والثاني. ونبقى مع رواية ابن سلاّم، فهل حكايتنا هي إسرائيلية من تلك الإسرائيليات القديمة وموروث يهودي معروف ورائج في أوساط الأحبار والدارسين للتوراة في الجزيرة العربية، كما تؤكّده الحكاية نفسها[6]؟ أم اختلقها القاصّ الشعبي ونسبها إليه؟ كلّ هذه الملاحظات ستصاحبنا في التحليل بمثابة خيط رقيق وناظم لتعاملنا الأدبي مع هذه القصة القديمة.

فهناك كما قلنا ندرة في الشهادات التاريخية قبل الثعلبي، ولم نعثر على شهادة كتابية ترجع إلى القرن الثاني أو الثالث الهجريين. فقد جاء ذكر اسم بلوقيا وعفّان في «مختصر تاريخ الطبري» لبلعمي مترجم الكتاب إلى الفارسية (363هـ) كما أشار إليها حمزة بن الحسن الأصفهاني (360هـ) بدون تفصيل في كتاب

4 - هناك مفارقة كبيرة، فالكتب الأخرى التي تنتمي للغرض السردي نفسه (قصص الأنبياء) لا تذكر قصّتنا، مثلاً كتاب «قصص الأنبياء» للكسائي ليدن 1922

5 - ربمّا الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يعطينا بعض الأجوبة هو دراسة معمّقة لطرق رواية الأخبار القصصية ابتداء من القرن الثاني الهجري إلى حدود القرن الخامس. نوع من الدراسة الأركيولوجية لكميّة كبيرة من الأخبار الموزّعة في مصادر كثيرة نختزلها عادة وأحياناً بدون تمحيص وتدقيق في العبارة الفضفاضة "الإسرائيليات".

6 - وذلك بنسبة الحكاية إلى عبد الله بن سلاّم.

«تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء»[7] وذكرها بتفصيل **عبد الملك بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الخركوشي (407هـ) في كتابه «شرف المصطفى».**[8] ويبقى، حسب علمنا، الأثران السرديان المشهوران هما كتاب «عرائس المجالس في قصص الأنبياء»[9] (العرائس) لأبي إسحاق الثعلبي الذي خصّص لها مجلساً بكامله بعنوان «مجلس قصة بلوقيا» (المجلس رقم 28)، ومجموعة ألف ليلة وليلة التي تذكر الحكاية بإسهاب مع تغيير بعض العناصر السردية وإضافة أخرى مروية في تركيبة سردية جديدة تجمع كلّاً من حكاية حاسب كريم الدين وجنشاه[10] كما سنبيّنه. وننتقل قروناً بعد ذلك لنجد القصة في كتاب النويري (732هـ)، في "نهاية الأرب في فنون الأدب"، [11] وبإيجاز في "مختصر بدائع الزهور في وقائع الدهور"[12] المنسوب لابن إياس (930هـ)، نقلاً عن الثعلبي.[13]

وتبقى هذه المراجع، حسب علمنا، هي المصادر الوحيدة والمختلفة الاهتمام التي روت قصة بلوقيا والتي ترجع جلّها إلى رواية الثعلبي[14]. فعادة الكتّاب القدماء أمثال الطبري والمسعودي والمفسّرين القدامى وكتاب الأدب والعجائب يخصّصون صفحات طويلة لمثل هذه الحكايات. لكن ما نلاحظه هنا هو العكس. فالحكاية معروفة فقط عن طريق نزر قليل من الرواة وفي مراجع متنوّعة الأجناس تُظهر تنقّلات الرحلة: السِيَر (شرف المصطفى) والقصص الدينية (العرائس) وعالم الحكايات (ألف ليلة وليلة) والتاريخ (مختصر الطبري، وتاريخ سني ملوك الأرض وبدائع الزهور)، والأدب (نهاية الأرب).

7- اسم بلوقيا وعفان مذكوران في مختصر الطبري لبلعمي في حين لا نجد أيّ ذكر لهذه القصة داخل النسخة العربية لكتاب الأمم والملوك والرسل للطبري، وهو ما يظهر معرفة بعض كتّاب القرن الرابع الهجري أو قراءتهم أوسماعهم لهذه القصة. أنظر الترجمة الفرنسية: Zotenberg, Paris, reédition de 1984, t.I,

De la création à David, p.64

8 - عن دار البشائر الإسلامية، مكة، الطبعة الأولى، 1424 هـ/2003، انظر: https://ia600703.us.archive.org/33/items/abuyaala_manahil/msms1.pdf ذكر القصة في ج.1، في الفصل المعنون «ذكر ما ظهر في بني إسرائيل من أمارات نبوّة رسول الله (ص)» ص 137 إلى ص 157

9 - إضافة إلى كتاب "العرائس"، اشتُهر الثعلبي مفسّرًا وواعظًا. فقد كتب تفسيراً كبيراً للقرآن يحمل عنوان "الكشف والبيان في تفسير القرآن" وله كذلك كتب أخرى. وقد خصّصنا له بعض المقالات في موقع أنفاس.نت (المغرب) http://www.anfasse.org

10 - رويت الحكاية في الليالي من الليلة 468 إلى الليلة 487. وقد قام جمال الدين بن الشيخ بدراسة هذه الحكاية في ألف ليلة وليلة في الفصل «تحوّلات المتخيّل» من كتابه: Les mille et une nuits ou la parole prisonnière, Paris, Gallimard, 1988

11 - قبل سردها يخاطب النويري قارئه: "وهذه القصة تشتمل على عجائب كثيرة ووقائع قد ينكرها بعض من يقف عليها لغرابتها وليست بمستنكرة بعد أن ثبت في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال: «بلّغوا عنيّ ولو آية وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب عليّ متعّمداً فليتبّوأ مقعده من النار «. ويضيف: «لنأخذ الآن في سرد القصة» انظر، ج 3، 473، مصدر الكتاب: موقع الورّاق. http://www.alwarraq.com، بعد ذلك يبدأ النويري الرواية على الشكل التالي: «قال أبو إسحاق الثعلبي رحمه الله تعالى في كتابه المترجم بـ **(يواقيت البيان في قصص القرآن)** بسند رفعه عن عبد الله بن سلام قال.. وليس **(عرائس المجالس في قصص الأنبياء)**»!

12 - هذا الكتاب لا علاقة له بالكتاب التاريخي لابن إياس، مؤرّخ عصر المماليك، "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، والظاهر، حسب صاحب مقال ابن إياس في الموسوعة الإسلامية، أنّ العنوان الصحيح هو "مرج الزهور في وقائع الدهور"، المطبوع عدّة طبعات شعبية. انظر كذلك جمال الدين بن الشيخ، المصدر السالف، ص 183

13 - ذكر النويري القصة نفسها كما ذكرها الثعلبي في حين الرواية المنسوبة إلى ابن إياس في (المختصر): "احترمت جوهر الحكاية واختصرتها لكنها استعملت أحياناً عبارات ومفردات أخرى مثلاً اسم أبي بلوقيا "إيشا" وليس "أوشيا" و"صحيفة" مكان "أوراق" وعبارات أخرى"، انظر كتاب مختصر وقائع الدهور ص 87-89 http://faculty.mu.edu.sa/public

14 - ذكر الثعلبي في «العرائس» قصصاً كثيرة ووحدات إخبارية لا نجدها لا عند الطبري ولا في كتب القصص والمصادر الأخرى. ويبدو أنّ هناك طرقاً روائية أخرى ربمّا كان الثعلبي على دراية بها أو لم يذكرها الرواة الآخرون لأسباب نجهلها.

فإن كان بلعمي من بين السبّاقين إلى التلميح لها، فالحكاية اشتُهرت، حسب فرضيتنا، في كتاب العرائس للثعلبي. ولهذا السبب سنركّز في دراستنا على هذه الرواية المنظّمة بطريقة متسلسلة بدون تقطيع أجزائها وتصنيفها في فصول وأبواب كما يفعل الثعلبي عادة في معظم مجالسه. ونتساءل: لماذا ذكرها هذا الأخير في المجالس الأخيرة من كتابه الذي يضم 32 مجلساً؟. فالحكاية مذكورة بين مجلس لقمان (رقم27) ومجلس ذي القرنين (رقم 29) وكلّها شخصيات لا يمكن تصنيفها كأنبياء على غرار المجالس السابقة المخصّصة غالبيتها لسرديات نبويّة، مع العلم بأنّ بلوقيا ليس نبيّاً هو الآخر. فإذا كان الراوي (الثعلبي) لا يعلّل ولا يفسّر اختياراته القصصية بشكل واضح فهناك مجموعة من المؤشرات تشفع لحضور هذه القصة في العرائس. فحكايتنا ليست الاستثناء الوحيد، فقد ذكر الثعلبي في مؤلّفه قصصاً أخرى لا تمتُّ ظاهرياً للأنبياء بصلة لكنّها تنسجم مع السياق الديني والسردي العام للكتاب. والجواب الهامّ على تساؤلنا نجده في خطبة كتاب العرائس[15] التي ترسم معالم مشروع الثعلبي القصصي.

ألف ليلة وليلة ومغامرة بلوقيا

إذا كان السياق الديني لحكاية بلوقيا يبرّر روايتها داخل كتاب قصص الأنبياء فإنّ وضعها في سياقات أخرى كألف ليلة وليلة أو كتب التاريخ أو الأدب يستدعي بعض الملاحظات. فأما من حيث حضور قصّتنا في "الليالي"، فقد قام جمال الدين بن الشيخ بدراستها في كتابه «ألف ليلة وليلة أو الكلام الأسير»، في الفصل المعنون «تحوّلات المتخيّل» وذلك من خلال الحكاية العجيبة لحاسب كريم الذي رحل إلى مملكة الحيّات مبيّناً دور الفاعلين الثلاثة في الحكاية (بلوقيا وجانشاه وحاسب كريم الدين) ورابطاً كلّ واحد منهم بمنظور دلالي: حكاية حاسب كريم من خلال «طقس المسارّة»، وبلوقيا من «خلال رحلته السماوية»، وجانشاه من خلال «خيال الرغبة».

ويخلص جمال الدين بن الشيخ في النهاية إلى أنّ هذه الحكاية المشتملة على ثلاث حكايات متباينة المواضيع ومستقلّة عن بعضها سرديّاً تجمع، على المستوى التخييلي، بين قصّة العشق المستحيل، والرحلة إلى السماء بحثاً عن الحقيقة. وفي الأخير يعقد مقارنة بين أجزاء من أحداث هذه الحكاية مع ما ورد في كتاب قصص الأنبياء للثعلبي.[16] ويتابع جمال الدين تساؤلاته حول حضور حكاية بلوقيا في ألف ليلة وليلة، ويرى أنّ هناك حجّتين تشفعان في حضورها: **أوّلاً**، إقصاء القصة من كتب قصص الأنبياء بعد الثعلبي حيث أضحت في سياق عالم الحكايات العام، وبذلك تحوّلت الحكاية، في سيرورتها التاريخية، من قصّة دينيّة إلى

15 - سنذكرها بصفة تفصيلية في الصفحات الأخيرة من هذه الدراسة.

16 - نحيل القارئ إلى هذه الدراسة مشيرين في الوقت نفسه أنّنا سنتطرّق لحكاية بلوقيا من زاوية بنائها وتكوينها السردي وعلاقتها بمشروع ديني ووعظي ساهم في بنائه أبو إسحاق الثعلبي. وبذلك يصبح بالنسبة إلينا متن الثعلبي هو المتن الأساس لرحلة بلوقيا.

حكاية عادية. و**ثانياً**، انتظمت هذه الحكاية في «الليالي» لأنّ مغامرة بلوقيا تخدم مشروع القاصّ الذي وجد نفسه مضطرّاً إلى إدخالها في الليالي.[17]

فنحن لا نقرأ حكاية بلوقيا في كتاب عرائس المجالس بالطريقة نفسها التي نقرؤها في الليالي. فالقارئ، من جهة، هو أمام قصّة دينية ومن جهة أخرى هو داخل مغامرة أدبية (الليالي) لها تطوّرها الخاص إذ يجب قراءتها بموازاة مع مغامرات أخرى (حاسب كريم الدين وجنشاه)، حكاية داخل ثلاث حكايات. وتبقى الحكاية الأولى (حاسب كريم الدين)، حسب منطق اللّيالي، هي المؤسِّسة وحولها تتمركز الحكايات الأخرى. وهذا ما يفسّر أنّ الليالي تضيف لقطات وعناصر سردية غير موجودة في العرائس، لأنّها نتاج جهد جماعي مشترك طال عهوداً وأجيالاً كثيرة.[18]

ففي حدود الشهادات التي وصلتنا، يمكن القول إنّ حكايتنا تنتمي إلى حدّ ما إلى المرويات الشفوية الأولى، تداولتها الألسن منذ البدايات وكانت معروفة في القرن الرابع الهجري عصر الوزير المترجم بلعمي والكربوشي وفي القرن الخامس الهجري عصر الثعلبي، وهو ما دفع بهذين الراويين المهتمّيْن بالأخبار وتواريخ الأمم الماضية إلى التلميح إليها ورواية متنها (الثعلبي)[19]. ويمكن أن نفترض أنّ الحكاية وجدت مكانها بعد ذلك داخل المجموعة السردية الكبرى ألف ليلة وليلة، لكن لا نملك أي دليل على ذلك خصوصاً في مرحلة سردية كان جانب التبليغ الشفاهي يلعب فيها دوراً كبيراً.[20]

3- استلهامات الحكاية

تطرح حكايتنا من حيث تركيبتها وتداخلها مع نصوص (أو أخبار) سردية إسلامية أخرى بعض الإشكالات. فهي ليست بالقصة الطويلة جداً على عكس القصص الأخرى التي ذكرها الثعلبي في كتابه العرائس في عدّة صفحات مفصّلة ومجزّأة ومبوّبة. فنحن أمام قصّة مكوّنة من ثماني صفحات متواصلة لها علاقة مباشرة بمحطّات رحلة بطلها بلوقيا الذي هام في الأرض وعوالم أخرى بحثاً عن النبيّ محمد قصد

17 - هناك، وكما أشرنا له، فرق بين رواية حكاية بلوقيا في الليالي وروايتها داخل غرض قصص الأنبياء (الثعلبي)، فهناك حضور واختفاء لمجموعة من العناصر التي ساهمت في تطويرها، أنظر المقارنة التي قام بها جمال الدين بن الشيخ، المصدر السالف، ص ص 178-181

18 - أنظر جمال الدين بن الشيخ، المرجع السابق، ص 220

19 - رحلت حكاية بلوقيا إلى الغرب الإسلامي (الأندلس)، وعندنا بعض الشهادات على تداولها هناك خصوصاً في فترة الموريسكيين الذين اضطرّوا في القرن الخامس عشر الميلادي إلى إخفاء دينهم والتظاهر بالمسيحية بحيث أصبحوا بعيدين عن تعاليم الإسلام وعاشوا أزمة هويّة دينيّة. وكان الموريسكيون بحكم منعهم من قراءة الكتب العربية وممارسة اللغة العربية في الأماكن العامة يقرؤون هذه الحكاية المكتوبة بلغة «ألخاميادو» alj-miado. انظر دراسة وتحقيق مخطوط رحلة بلوقيا Luce Lopez-Baralt, El Viaje maravilloso de Bulûqiyya a los confines del universo. Edicion, traduccion, estudios, itroduction y notes, Madrrid, 2004. ms Escuea de Estudios Arabes, Gra-nada، أنظر كذلك مقال François Delpech, Salomon et le jeune à la coupole de verre. Remarques sur un conte septiential morisque, in Revue de l'Histoire des Religions, 2006, p.1

20 - تتّصف السرديات الدينية الإسلامية القديمة بمرحلتين، مرحلة الرواية الشفاهية التي قام بها رواة مختلفو الأقنعة وعلى رأسهم القاص الشعبي، ومرحلة التدوين والتنظيم والحصر الكتابي، التي دوّنها الإخباريون ومتتبّعو هذا النوع من القصص.

ملاقاته والدخول في دينه. فالقصّة لا تتبّع تقسيماً زمنياً بقدر ما تتبّع الأحداث التي يصنعها بلوقيا والمشاهد التي يمرّ بها، فهناك موازاة بين مغامرة بلوقيا واللّوحات التي رسمها السرد كما سنبيّنه.

ويسترعي انتباه القارئ، وذلك منذ الوهلة الأولى، التشابه بين قصة بلوقيا وبعض العناصر المتكرّرة في مجموعة من القصص القديمة الإسلامية. فالحكاية مزيج من مراحل سردية موزّعة في قصص وأخبار كانت معروفة قبل أن ينسّقها القاص الشعبي في روايته وينظّم خيوطها رواة القصص الديني، أمثال الثعلبي، وذلك داخل بنية سردية مكوّنة من أجزاء ووحدات سردية متتاليّة ومتناغمة. فلا كتابة من الصفر كما يقال، وقانون التداخل بين الوحدات السردية والتناغم بين النصوص واضح في عملية كتابة الثعلبي. فيمكن اعتباره - حسب فرضيتنا - الراوي المنظّم والمنسّق لهذه الحكاية في كتاب معيّن وجنس أدبي ديني (قصص الأنبياء) انطلاقاً من مجموعة من الأخبار السابقة (أو المجاورة) التي استقاها وأدرجها في خانة المجلس والتي تمتُّ بصلة بأغراض سردية كانت معروفة في بدايات الإسلام. ونختزل بعض هذه الاستلهامات في المتون السرديّة التالية التي نذكرها بدون تفصيل:

ذوالقرنين أو البحث عن الخلود

من بين المتون السردية التي استلهمت منها رحلة بلوقيا بعض العناصر نشير بسرعة إلى قصّتيْن مذكورتين في كتب قصص الأنبياء ومجاورتين لقصة بلوقيا في العرائس، وهما رحلتا ذي القرنين والخضر.[21] تحكي السورة الثامنة عشرة من القرآن (سورة الكهف) بعض عناصر شخصية ذي القرنين، وقد أوحي بهذه السورة، كما يخبرنا بذلك المفسّرون القدامى، إلى الرسول محمد استجابة لبعض الأسئلة الموجّهة إليه من قبل أحبار اليهود المقيمين في المدينة. وطبقاً لما أورده ابن هشام في «السيرة»، فقد قلقت قريش من ادّعاءات الرسول الكريم بالنبوّة واستشارت أحبار اليهود في أمره. ويروي ابن هشام أنّ قريش أرسلت رجلين إلى أحبار اليهود في المدينة باعتبار أنّ اليهود لهم معرفة كبيرة بعلم الكتاب. ووصف القرشيّان النبيّ محمد فنصحهما الأحبار أن يسألوه عن ثلاثة أمور «فإنّ أخبركم بهنّ فهو نبيّ مرسل وإن لم يفعل فهو متقوّل كذباً وفي هذه الحالة فأمره متروك. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر القديم ماذا كان من أمرهم فإنّه قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي، فإن أخبركم بذلك فاتّبعوه فهو نبيّ وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم».[22]

وكما نعرف، فقد خصّص الثعلبي صفحات كثيرة في العرائس لذكر أخبار ذي القرنين التي تضمّ بعض العناصر السردية كالحوار الذي دار بين ذي القرنين والملَك «رفائيل» والذي يحمل في طيّاته فكرة انتظار

21 - أنظر باب قصة موسى حين لقي الخضر وما جرى بينهما من العجائب (ص ص 192-195) ومجلس ذكر قصة ذي القرنين، خصوصاً باب دخول ذي القرنين الظلمات مما يلي القطب الشمالي لطلب عين الحياة (ص 329)

22 - ابن هشام، السيرة، ج 1، ص 158، http://www.maaber-new.com/books/Ibn_Hisham.pdf

نبوّة محمد، وهي الفكرة الأساس في حكايتنا، كما قال ذو القرنين: «أحبّ أن أعيش فأبلغ من عبادة ربيّ حقّ عبادته، فقال رفائيل أو تحبّ ذلك يا ذا القرنين؟ قال: نعم. قال رفائيل: فإنّ لله عيناً في الأرض تسمّى عين الحياة فمن منّ الله عزّ وجلّ أن يشرب منها شربة لا يموت أبداً حتىّ يكون هو الذي يسأل ربّه الموت...»[23]

أما الاستلهام الآخر فنجده في قصة الخضر، وتحكي لنا الأخبار الإسلامية القديمة كيف اكتسب الخضر الخلود.[24] فقد كان، حسب رواية أخرى، وزيراً لذي القرنين الذي رحل بدوره إلى بلاد العتمة بحثاً عن ينبوع الحياة، حيث شرب الخضر من الينبوع. ونعرف أنّ قصة الخضر مرتبطة بأسطورة ذي القرنين في التراث الإسلامي وكذلك الحال مع شخوص أخرى (موسى مثلاً في سورة الكهف)، ومن أبرزها رحلته التي ذكر القرآن بعض عناصرها وتفنّن رواة قصص الأنبياء في روايتها.[25]ونجد في رحلات الخضر ملامح من مغامرة بلوقيا وتشابهاً. فهذا الأخير يخرج للقاء النبيّ محمد ولكنّه يلتقي بعد قطع مسافات شاسعة بالخضر الذي سيساعده في نهاية الرحلة على الرجوع إلى أهله على ظهر طير عجيب.[26] ونقرأ في رواية ألف ليلة ليلة أنّ بلوقيا «أراد أن يذهب فقال له الطير اجلس يا بلوقيا في حضرة الخضر عليه السلام، فجلس بلوقيا فقال له الخضر أخبرني بشأنك واحك لي حكايتك». فالخضر حاضر في كلّ من الروايتين، ويتداخل في شخصه البُعد المقدّس الصوفي والبُعد الشعبي الأسطوري.[27]

يظهر من الروايات السالفة بعض عناصر الاستيحاء والاستحضار التي دخلت في جسم حكاية بلوقيا أو استلهمها الرواة القدامى في بلورتها، وسندّقق في هذه المسألة لاحقاً.

البحث عن النبيّ محمد

هناك كذلك مجموعة من الأخبار تمتُّ بإسلام بعض الشخصيات المشهورة والمنحدرة من أصل يهودي وغيره ككعب الأحبار وعبد الله بن سلام (راوي قصة بلوقيا)[28]وسلمان الفارسي (36 هـ)[29] كما رواها الرواةُ

23 - العرائس، ص 330. عنصر "عين الحياة" مذكور بوضوح في رواية بلوقيا في الليالي.

24 - هذه الفكرة دافعت عنها رحلة "جلكامش" القصيدة البابلية القديمة التي تروي قصة «إنكيدو وجلكامش» والتي تشبه في بعض عناصرها وتركيبتها حكايتنا. وتطرح هذه «الملحمة» سؤالاً شغل الإنسان ولا يزال وهو مسألة الموت والبحث عن الخلود وما بعد الموت. وفكرة الموت كذلك فكرة أساسية في سرديات ألف ليلة وليلة وهي المرتكز الذي تقوم عليه. وكما نعرف فألف ليلة وليلة نص ثريّ متعدّد المشارب وله علاقة مع نصوص كثيرة عربية وفارسية ويونانية وهندية ومسيحية لذلك لا غرابة إن لمسنا في حكايتنا شيئاً من جلكامش خصوصاً في رواية الليالي.

25 - خصّص الثعلبي لهذه الشخصية مجموعة من الوحدات السردية، وذلك في مجلس قصة موسى كما ذكرناه في هوامش سالفة.

26 - يذكر الثعلبي في العرائس من ص 192 إلى ص 204 أخباراً عديدة متعلّقة ببدء أمر الخضر والعجائب التي جرت له.

27 - يحكي الثعلبي في خبر مسند إلى أنس بن مالك يقول فيه: «خرجت مع رسول الله (ص) وإذا بصوت يجيء من شعب. فقال يا أنس انطلق فأبصر ما هذا الصوت؟ قال فانطلقت فإذا رجل يصلّي ويقول: اللّهم اجعلني من أمّة محمد المرحومة المغفور لها المستجاب لها المتوب عليها. فأتيت رسول الله (ص) فأعلمته بذلك فقال لي انطلق فقل له إنّ رسول الله (ص) يُقرئك السلام ويقول لك من أنت؟ فأتيته وأعلمته بما قال رسول الله، فقال لي أقرئ رسول الله منّي السلام وقل له أخوك الخضر يقول لك ادع الله أن يجعلني من أمّتك المرحومة المغفور لها المستجاب لها المتوب عنها»، العرائس، ص 198

28 - سنتطرّق إليه لاحقاً، أنظر حكاية إسلامه كما رواها ابن هشام في السيرة.

29 - رويت قصة إسلام سلمان في مصادر كثيرة كمسند الإمام أحمد وسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير وغيرها. وتدور أحداث رواية "الباحث عن الحقيقة" لمحمد عبد الحليم عبد الله، مكتبة مصر، 1998، حول شخصية سلمان الفارسي، وقبله تحدّث خالد محمد خالد في كتابه "رجال حول الرسول" عن "سلمان الباحث عن الحقيقة".

القدامى مثل ابن إسحاق والبخاري وابن قيم الجوزية، وآخرون يحكون قصص إسلام هؤلاء الشخصيات ورحلات بحثهم عن النبي الكريم محمد. رحلات توسم بـ«البحث عن الدين الحقّ» أو بـ«انتظار الدين الحقّ» وذلك كما هو مشهور في قصّة إسلام كعب بن ماتع الحميري المعروف بكعب الأحبار.[30]

والذي يهمّنا من خلال ذكر هذه الشخصية الإسلامية الهامّة في بداية تاريخ السرديات الدينية التوراتية في الإسلام هو القصّة التي تتعلّق بإسلامه وذلك كما رواها الرواة القدامى. فهناك توارد بين أحداث قصّة إسلام كعب الأحبار ورحلة بلوقيا، تشابه نجده في عناصر البحث عن نبوة محمد والاجتهاد في الوصول إلى حقيقتها والبحث عنها في التوراة. فكعب له معرفة عميقة بالتوراة (ويكنّى الحِبْر) على غرار بلوقيا وبذلك يجسّد بجدارة فكرة «البحث عن الدين الحق» حسب منطوق حكايتنا. فهناك رواية منسوبة إلى ابن المسيّب تروي خبراً فيه إشارة إلى السبب الذي حمل كعب الأحبار على تغيير دينه على شاكلة بلوقيا: «قال العباس (بن عبد المطلب) لكعب: ما منعك أن تسلم على عهد رسول الله وأبي بكر حتى أسلمت الآن على عهد عمر؟ فقال كعب: إنّ أبي **كتب لي كتاباً** من التوراة ودفعه إليّ وقال: اعمل بهذا، **وختم** على سائر كتبه وأخذ عليّ بحقّ الوالد على ولده أن **لا أفضّ الخاتم**، فلما كان الآن ورأيت الإسلام يظهر ولم أر بأساً قالت لي نفسي لعلّ أباك **غيّب** عنك علماً **كتمك** فلو قرأته **ففضضتُ** الخاتم فقرأته **فوجدت صيغة محمد وأمّته** فجئت الآن مسلماً».[31]

يستحضر هذا الخبر مجموعة من العناصر التي توجد في توليف قصة بلوقيا وبنائها، كالعنصر اليهودي والمعرفة التوراتية الموروثة والمشتركة. فكعب كما هو مذكور في الخبر وجد صفات الرسول محمد في التوراة، [32] والخبر يؤكّد عناصر حكائية مهمّة نجدها في مقدمة رحلة بلوقيا: ككتمان نبوّة محمد وأمّته وختم الكتب وفضّ الخاتم وأخيراً اكتشاف هذه النبوة والإيمان بها. هذا الانشغال، كما يؤكّد عليه الرواة القدامى، لمعرفة نبوة محمد والمعاناة من أجلها كلّها أصداء نجدها كذلك في حكاية إسلام شخصيات أخرى وأخبارها، كسلمان الفارسي وعبد الله بن سلاّم راوي قصّتنا.

فقد ذكر محمد بن إسحاق أنّ عبد الله بن سلاّم كان يقول لأحبار اليهود: «اتّقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنّكم لتعلمون أنّه لرسول الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإنّي أشهد أنّه رسول الله

30 - مازالت شخصية كعب تثير الجدل في الأوساط الدينية وذلك حول ثلاث قضايا: أولاً حقيقة إسلامه، وثانياً الدور (المزعوم أو الحقيقي) الذي لعبه في اغتيال الخليفة الثاني عمر، وثالثاً المسؤولية التي توضع على عاتقه في رواية المرويات التوراتية الموسومة بـــ"الإسرائيليات".

31 - أنظر طبقات ابن سعد، ج 7. http://www.al-eman.com وانظر كذلك «الأسباب التي حملت كعباً على اعتناق الإسلام» ص 27 وما بعدها في كتاب كعب الأحبَار، لإسرائيل أبو ذؤيب، القدس، 1976 المنشور على محرّك البحث غوغل: http://muhammadanism.com/Arabic/book/zeev/kaab_al_ahbar.pdf

32 - لابدّ من التذكير هنا بأنّ هناك مجموعة من الآيات القرآنية التي تشير إلى ذكر صفات النبيّ محمد في كتب أهل الكتاب وذلك في السور التالية: الصف/6 والبقرة/173 و143 و145 حيث يؤكد القرآن كتمان أحبار اليهود وعلماء النصارى هذه النبوّة.

وأومن به وأصدّقه وأعرفه فقالوا كذبت».[33] وقد استساغت رحلة بلوقيا كلّ هذه العناصر العامة داخل قالب سردي جذّاب جاعلة من شخص بلوقيا المثل والقدوة للإسرائيلي الباحث عن نبوّة محمد والبشارة بها. **ففي قصة إسلام كعب الأحبار وعبد الله بن سلام وغيرهما، دليل على وجود هذه البشارات برسول الإسلام، كما يوهمنا السرد. إذ كثيراً ما صرّح هؤلاء وغيرهم بأنّ إسلامهم كان لانطباق البشارات على النبيّ محمد في الكتاب المقدّس، وهذه، كما نعلم، فكرة دينية مؤسّسة ومركزيّة تحملها وتدافع عنها مغامرة بلوقيا.**

مشاهد من المعراج والقيامة

تتقاسم حكايتنا مع المتون السردية مثل الإسراء والمعراج وأخبار مشاهد القيامة والآخرة[34]، وهي مجموعة من الوحدات والعناصر والمواضيع المستقاة من الأحاديث الضعيفة التي تصف النار والجنّة وتتبّع أسطورة خلق العالم وأوصاف الملائكة والجنّ والعجائب التي يزخر بها خزّان الإسرائيليات، [35]والتي سنفصّلها لاحقاً.

فإجمالاً يمكن وسم العلاقة بين قصّة بلوقيا والنصوص السابقة لها بالعلاقة التناصيّة الجامعة، وهي نوع من التأثّر والاستيحاء والاستحضار. علاقة تصل بين نصّ لاحق ونصّ سابق وهما يلتصقان ببعضهما في جوانب وصفية وفكرية تتمّ غالباً بواسطة عملية تحويليّة غير مباشرة بواسطة عناصر تسرّبت إلى جسم الحكاية وطوّرتها. فلا جرم أنّ القاصّ القديم كان وراء تطوّر بعض فصول هذه القصص والأخبار المشتركة بين مجموعة من الأغراض الأدبية والدينية إبّان فترة الإسلام الناشئ، [36] ولا غرابة أيضاً أن نجد شخوص هذه المتون السرديّة (الخضر وذو القرنين وحكايات مسلمي اليهود وعوالم الجنّة والنار وشخوص الملاك والحيوان الخ...) حاضرة بوضوح في تأثيث مواقع حكاية بلوقيا.

---

33 - انظر ابن قيّم الجوزيّة، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تحقيق: أحمد حجازي السقا، مصر الجديدة، المكتبة القيّمة، 1407 هـ، ص 138. وذكر ابن سعد في "الطبقات" فصلاً لصفات رسول الإسلام في التوراة والإنجيل فيه روايات مسندة إلى كعب الأحبار وعبد الله بن سلام وآخرون تذكر نعت الرسول في التوراة، وقد شغل هذا الموضوع، كما أشرنا إليه، بال مجموعة من العلماء المسلمين القدامى مثل ابن هشام في السيرة والترمذي في كتاب الشمائل وأبي نعيم في حلية الأولياء... الخ.

34 - تذكر مجموعة من المؤلفات الإسلامية أحوال الآخرة كـــ«كتاب الدرّة الفاخرة» (الغزالي) و«التذكرة» (القرطبي) و«التوهّم» (للمحاسبي)، وهذا على سبيل المثال لا الحصر. أنظر، خارج الثقافة الإسلامية، دراسة كلود كبلير: Claude Kappler, Apocalypses et voyages dans l'Au-delà, éditions du Cerf, 1987

35 - يمكن وضع حكاية بلوقيا في خانة ما تسمّيه الثقافة الإسلامية القديمة بـــ«الإسرائيليات»، هذه الغابة الكثيفة والخزّان الكبير من القصص الدينية والوعظية التي تداولها القصّاص والرواة والمفسرون والإخباريون المسلمون القدامى لقرون طويلة. وكما أشرنا إليه يصعب الحديث عن مصادر هذا الكم الهائل من «الإسرائيليات» التي غالباً ما يقال إنهّا مقتبسة إلى حدّ كبير من قصص «الهاجادا» اليهودية وقصص أسطورية شرق أوسطية طبعها الرواة القدامى بطابع وسياق إسلاميين. أنظر رمزي نعناعة «الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير»، ص 71 وما بعدها.

36 - نجد هذه الوحدات في بطون مجموعة من المؤلفات ككتب الأحاديث الموضوعة والتفاسير وقصص الأنبياء وكتب العجائب والترهيب والترغيب، وخطابات سردية وعظية أخرى.

4- متاهات الرحلة

الحكاية والإسناد

النعت الشامل لحكاية بلوقيا نجده في الأسطر الأخيرة لمتنها: «**هذا ماكان من حديث بلوقيا وما رأى من العجائب في البحر والبرّ سهلاً وجبلاً. والله أعلم**»[37]. ينعت السرد الحكاية مستعملاً كلمة «حديث». فالراوي يوهمنا أنّه بصدد حكاية متواترة ومكتوبة[38]ومثبتة، وبذلك ينفي بشكل واضح طابع الشفوية وما يعتريها من تغييرات ومفارقات.[39]وهذه بطبيعة الحال من الاستراتيجيات التي يستعملها القصّاص والرواة القدامى. لكنّنا في الوقت نفسه نلاحظ أنّ هذه الحكاية تبتدئ بإسناد[40]، فما هي طبيعته ومكوّناته؟

يفتتح الثعلبي قصّته بسند يرفعه إلى عبد الله بن سلاّم (الراوي الفعلي المزعوم)[41] (تـ 43 هـ) الذي يروي هذه الحكاية ويتحمّل روايتها في زمن معيّن (زمن القصّ)، «**أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله الحزرقي بإسناده عن عبد الله بن سلام الإسرائيلي قال...**»[42] ويظهر من السند أنّ الثعلبي سمع القصّة من راوٍ معاصر له يُدعى أبا بكر محمد بن عبد الله الحزرقي»،(؟) وبذلك يقول لنا الثعلبي إنّ هناك سنداً متّصلاً يصل إلى زمن عبد الله بن سلاّم المتحمّل الأول للرواية، حسب لغة أهل الحديث. في حين لا نعرف شيئاً عن «الموقف السردي»[43] الذي جمع كلّاً من راوينا (الثعلبي) والشخص المدعوّ الحزرقي. فما هي القنوات السردية التي تتبّعتها الحكاية منذ زمن عبد الله بن سلام إلى زمن الثعلبي؟

إنّ الثعلبي في جلّ كتابه «العرائس» لا يتتبّع منهج الرواية المتّصلة للإسناد من أوّله إلى منتهاه. وتبدو رواياته وكأنّها تقلّد منهج رواية الحديث ونظامها، ولكن لا تتحرّى الدقّة فيه. فتارة يذكر إسناداً مباشراً عن الرسول وتارة يذكر اسم أحد الرواة القدامى من صحابة وتابعين وغيرهم دون أي إسناد وأحياناً يستعمل عبارات عامّة[44]. فهذه الطريقة في رواية القصص الدينية هي ربمّا مقصودة وليست نتاج إهمال، فالقصص

37 - العرائس، ص 322

38 - تشير مجموعة من الحكايات في ألف ليلة وليلة إلى عملية "الكتابة" أو "الأمر" بكتابة الحكاية.

39 - لعب القاصّ الشعبي دوراً مهماً في تبليغ مجموعة من القصص الدينية وتحويرها وخلقها. فبدون شكّ عرفت حكاية بلوقيا روايات متعدّدة. لكن مع الأسف لا نملك شهادات للكلام على طريقة توصيل هذه القصص وتبليغها. وقد أثار هؤلاء القصّاص اهتمام بعض العلماء المسلمين القدامى كابن الجوزي الذي نقدهم في كتاب "القُصّاص والمُذكرون" والسيوطي الذي حذّر منهم في "تحذير الخواصّ من أكاذيب القُصّاص".

40 - في "الليالي" ملكة الحيّات هي التي تروي الحكاية لحاسب كريم الدين وقبلها شهرزاد تحكيها لشهريار مستعملة عبارة "بلغني أيّها الملك السعيد».

41 - لا تذكر الروايات الأخرى راوياً آخر سواه.

42 - العرائس، ص 315

43 - السياق الذي تتمّ فيه الرواية

44 - كعبارات: "في بعض الأخبار" و"قال أهل العلم بسِيَر الماضين" و"أصحاب التواريخ"... الخ.

الديني عموماً وحكاية بلوقيا خصوصاً موجّهة أولاً إلى «العامة». وهذا ما يفسّر وجود عبارات عامة تنظّم سرديات الثعلبي يكرّرها مرّات عديدة في كتابه.

فحسب منطق السند المذكور في بداية الحكاية يظهر الثعلبي وكأنّه فقط مدوّن وصائن وحافظ لحكاية، مقرونة باسمه، كما أسلفنا. لكنّ المسألة أعقد من ذلك. فالثعلبي لا يدّعي أنّ القصة من إبداعه وإنّمـــا يقدّم نفسه راويًا ينتظم في سلسلة من الرواة التي تخبر عن طريق شخص يدعى الحزرقي! فأين هو **صوت** الثعلبي في الحكاية وما هي حدوده؟ أو لنقُل ما هي طبيعة عمله وفعله في القصّة؟ وأين تبدأ حدود تنظيمه لها وأين تنتهي؟ وهل ابن سلاّم هذا يلعب فقط دور القناع والراوي الحقيقيّ هو الثعلبي؟ لا نستطيع جزم ذلك، فاسم ابن سلاّم مذكور قبل الثعلبي والقصّة معروفة قبله. أضف إلى ذلك أنّ الثعلبي في خطبة «العرائس» يحدّد له مهمّة «بسيطة» (في نظره) يقول: «هذا كتاب يشتمل على قصص الأنبياء المذكورة في القرآن **بالشرح** والله المستعان وعليه التكلان». فمهمّة راوينا (الثعلبي)، كما يزعم، تكمن فقط في «الشرح» وليس في «الإبداع»![45]

اجتمع لدى عبد الله بن سلاّم، كما يحكى، علم التوراة وعلم القرآن، فهو حَبْر من أحبار يهود بني قينقاع مشهور في تاريخ الإسلام البدائي بمعرفته العميقة بالتوراة ومساءلته للنبيّ محمد. ولعظم تعمّقه الديني يُحكى أنّه كان يقسّم وقته أقساماً ثلاثة: قِسْم يتعهّد فيه بستانه، وقِسْم في الكنيس للوعظ، وقِسْم مع التوراة. ويقال كذلك إنّه كلّما قرأ التوراة (وهذا العنصر مهمّ) وقف طويلاً عند الأخبار التي تبشّر بظهور نبيّ في مكّة يتمّم رسالات الأنبياء السابقين ويختمها. كان يستقصي أوصاف هذا النبيّ المرتقب وعلاماته. وكان يتمنّى أن يفسح الله له في العمر حتى يشهد ظهوره. وهذا ما يفسّر تأكيد الإسناد على يهودية عبد الله بن سلاّم في الإسناد، مثل إضافة كلمة «الإسرائيلي»، وهو شيء مقصود يدخل في الآية «وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله».[46] وهو ما يجعل منه رمزًا وممثّلاً داخل الثقافة الدينيّة الإسلامية القديمة لتيّار يدافع عن فكرة حضور النبيّ محمّد في التوراة.[47] ولهذا فعندما ينسب (أو بالأحرى يُسند) الثعلبي مضمون السرد لعبد الله بن سلاّم فهو يمنحه بطريقة ضمنية ثلاثة مستويات متداخلة: الحقيقة والقداسة والثقة، وكلّها سمات ليست بعيدة عن مغزى حكايتنا.

45 - تبقى مسألة الإبداع والتخييل بالمفهوم العصري مسألة جدّ حسّاسة خصوصًا في موضوع كقصص الأنبياء! فالثعلبي يوهمنا بوقوع هذه القصة و«تاريخيتها» ولا علاقة إبداعيّة له بها!

46 - يقال إنّ هذه الآية (10/الأحقاف) نزلت في عبد الله بن سلام.

47 - هوروفيتس، دائرة المعارف الإسلامية، ج 1 ص 53 (بالفرنسية)

رسم شخصيّة بلوقيا

منذ أن اكتشف الشاب اليهودي (بلوقيا) "الأوراق" التي تتحدّث عن النبيّ محمد تعلّق حبّه به وتجلّت نزعته الدينية (الصوفية) وازدادت خصوصاً عندما التقى في آخر الرحلة بالخضر. وترسم افتتاحية الحكاية لوحة عامّة لمشروع بلوقيا[48]موجزة مجموعة من المعلومات والأخبار التي سنركّز عليها:

- أوّلاً: الدافع والغاية من الرحلة.

- ثانياً: مكان الخروج (مصر) وأسماء الشخصيّات الهامّة (أبو بلوقيا وأمّه).

- وأخيراً: وصف مسرح الحكاية انطلاقاً من أماكن وأشياء ترسم الديكور الذي وُضعت فيه بنية القصة الأوليّة. وسيتولّى السرد، في مراحل أخرى من تطوّره، ذكر وسائل السفر والانتقال ووصف محطّات الرحلة والعودة، وسنُفصّل القول في كلّ هذه المكوّنات.

يفتتح السرد كالتالي:

«كان في بني إسرائيل رجل يقال له أوشيا[49] وكان من علمائهم، وكان كثير المال وكان إماماً لبني إسرائيل وكان قد عرف نعت النبيّ عليه السلام وأمّته في التوراة فخبّأه وكتم عنهم. وكان له ابن يقال له بلوقيا خليفة أبيه في بني إسرائيل وكان ذلك بعد سليمان، فلما مات والده أوشيا بقي بلوقيا والإمامة والقضاء في يده»[50].

يؤكّد هذا المقطع، الغنيّ بالمعلومات، مجموعة من الأفكار التي ساهمت في وصف بطل القصة. فالراوي يذكر منذ البداية بأنّ بلوقيا ينتمي إلى عائلة تملك العلم والمال. فقد كان أبوه من علماء بني إسرائيل، وكان إماماً وقاضياً وكثير المال.[51] وكلّها أوصاف ووظائف تدلّ على المكانة الاجتماعية والعلمية والدينية التي تجعل من بلوقيا شخصاً ذا قيمة دينيّة واجتماعيّة ورمزيّة، مخوّلاً بأن يلعب الدور الأساسي الذي أناطه

48 - لا يذكر أصحاب المعاجم العربية كلمة بلوقيا، لكن نجد جذر «ب.ل.ق» (لسان العرب) بمعنى «السواد والبياض في الدابّة» و«انبلق الباب انفتح» ويُليق اسم فرس «والبلوقة مكان صلب بين الرمال كأنّه مكنوس تزعم الأعراب أنّه من مساكن الجنّ»، ومعان أخرى لاعلاقة لها بحكايتنا. وقد ردّ بعض الباحثين اسم بلوقيا إلى الشخصية اليهودية المسمّاة «بهلكياهو»، في حين تذكر «ستفان ديلي» في كتابها «أساطير من بلاد الرافدين» أن اسم بلوقيا هو صيغة تحبيبية مقتبسة من «بلكامش» وهو الاسم السومري لكلكامش». لكن يصعب وجود دلائل سردية تُقوّم هذه التأويلات داخل السرديات الإسلامية أنظر مقال ستيفان ديلي: Gilgamesh in the Arabian Nights, in: Journal of the Royal Asiatic Society, serie 3: 1, 1991, pp: 1 – 17.، وجمال الدين بن الشيخ، المصدر السابق.

49 - لا نجد هذا الاسم في رواية "الليالي".

50 - العرائس، ص 315

51 - يضيف راوي "الليالي": و"كان هذا الملك عالماً عابداً مكباً على قراءة كتب العلم فلما ضعف وأشرف على الموت، طلعت له أكابر دولته ليسلّموا عليه، فلما جلسوا عنده وسلّموا عليه قال لهم: يا قوم اعلموا أنّه قد دنا رحيلي من الدنيا إلى الآخرة وما لي عندكم شيء أوصيكم به إلاّ ابني بلوقيا فاستوصوا به، ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله، وشهق شهقة ففارق الدنيا رحمة الله عليه، فجهّزوه وغسلوه ودفنوه وأخرجوه خرجة عظيمة، وجعلوا ولده سلطاناً عليهم وكان ولده عادلاً في الرعية واستراحت الناس في زمانه". ألف ليلة وليلة، مراجعة سعيد جودة السحّار، القاهرة، مكتبة مصر، 1977، ج5، ص 84

به السرد ويصبح رحّالة غير عاديّ. ويلاحظ القارئ طيلة الحكاية ومحطّاتها الكثيرة أنّ بلوقيا يفتقد لملامح فزيولوجية واضحة المعالم. والإشارات القليلة للجوع (جوع بلوقيا) في سرد الثعلبي[52] ماهي في الواقع إلاّ تركيز على عجائبية الأكل أكثر من وصف جوع بلوقيا. فشخصيتنا طيلة مغامرتها الشاقّة والعجائبية تمارس الارتحال بمكوّنات خارقة للعادة حيث تصبح شخصيّة مركزية فاعلة منتجة للأحداث في القصة من خلال الحوار والاحتكاك بشخوص أخرى.

الحقيقة والتابوت

تبقى النقطة المهمّة المحرّكة لمشروع الرحلة هي أنّ "أوشيا" (الأب) قام بفعل شنيع يتنافى ومنطق الصيرورة الدينيّة للنبوّات: فقد "**خبّأ نعت النبيّ صل الله عليه وسلم وأمّته المذكور في التوراة**"[53]. وهذه الفكرة المحورية سيطوّرها السرد في أشكال مختلفة: ففي البدء كان التفتيش: **"فتّش بلوقيا يوماً خزائن والده فوجد فيها تابوتاً من حديد مقفلاً بقفل من حديد، فسأل الخزّان عن ذلك فقالوا لا ندري فاحتال على القفل حتّى فكّه فإذا فيه صندوق من خشب الساج ففكّه، فإذا فيه أوراق فيها نعت النبيّ وأمّته مختومة بالمسك. ففكّها وقرأ ما فيها على بني إسرائيل ثم إنّه قال: الويل لك يا أبت من الله فيما كتبت وكتمت من الحقّ عن بني إسرائيل فردّه إلى أهله فقال بنو إسرائيل: يا بلوقيا لولا أنّك إمامنا وكبيرنا لنبشنا قبره وأخرجناه منه وأحرقناه بالنار، فقال: يا قوم لا ضير إنّما تبع حظّ نفسه وخسر دينه ودنياه فألحقوا نعت النبيّ صلى الله عليه وسلم وأمّته بالتوراة."**[54]

يصوّر المقطع "الحقيقة الدينية"[55] (النبوّة المنتظرة) التي تدور حولها وتؤسّس لها حكاية بلوقيا. ويتكلّم كذلك على طبيعة المعرفة الحاملة لها والموجّهة إليها ويوضّح في السياق نفسه الإستراتيجية التي اختارها والد بلوقيا لكتمان هذه الحقيقة وكيف تحايل البطل (بلوقيا) ووصل إليها. هذه بصفة عامّة مجمل العناصر التي يرتكز عليها التقديم. فلنحاول إذن إظهارها.

بدءاً، وجد بلوقيا تابوتاً من حديد مقفلاً بقفل من حديد. يسأل من حوله ولا يجد جواباً لأسئلته. ويتسلسل السرد متتبعاً تطوّر الأحداث واصفاً خزائن موصدة، وراسماً التدابير التي أخذها "أوشيا" لحفظ هذه الحقيقة وجعلها بعيدة المنال وفي مأمن عن الأعين. فقد وضع الأوراق في خزائن وجعل على الخزائن خزّاناً بحيث أصبح "الخبر" مخفياً داخل مجموعة من الصناديق التي يصفها السرد بدقّة وتفصيل. فالأوراق (التوراتية)

52 - على عكس رواية "الليالي" التي تتكلّم بوفرة عن خوف بلوقيا وتعبه وجوعه ونومه الخ، وذلك منذ بداية الرحلة حيث نقرأ أنّ بلوقيا عندما وصل إلى جزيرة، "قعد تحت شجرة ونام فغلب عليه النوم فنام." ألف ليلة وليلة، ج5، ص 86

53 - العرائس، ص 315

54 - العرائس، الصفحة نفسها.

55 - يستعمل السرد كلمة "الحقّ" بدلالاتها الإسلامية العميقة. فنحن نعلم أنّ الكلمة من أسماء الله الحسنى ومذكورة مرّات عديدة في القرآن مقرونة غالباً بكلمة دين أو قصص. فنحن أمام خطاب سردي-ديني منسّق بطريقة دقيقة يختار كلماته ومصطلحاته للتأثير في قارئه.

التي تدلّ على نعت محمّد وأمّته موضوعة في صناديق عديدة مختومة كذلك بالحديد وبخشب الساج، لكي يتيقّن أبو بلوقيا من دفن هذه الحقيقة.[56] فحتّى الخزّان الذي يحرس هذه "الحقيقة" الشبيهة بالكنز لا يعرف كنهها.

ويتابع السرد وصف طريقة الحفاظ على هذه الحقيقة والاستراتيجية المتّبعة في الوصول إليها، ويؤكّد أنّ القفل المستعمل ليس سهل المنال. فكان لزاماً على البطل أن يستعمل الحيلة حتّى فكّه فإذا فيه صندوق من خشب الساج[57]، ففكّه فإذا فيه أوراق[58] فيها نعت النبي صلى الله عليه وسلم وأمّته مختومة بالمسك ففكّها وقرأ ما فيها. ويصوّر الراوي فكرة التدرّج في معرفة محتوى الخزائن انطلاقاً من عناصر متعدّدة: الحديد والقفل[59] والخشب (الصلب)، وفي قلب هذه الخزائن توجد الأوراق (الحقيقة) التي تحمل نعت نبيّ اسمه محمد وأمّته مختومة بالمسك. وتبدأ عملية فكّ اللغز وحلّ الرموز حيث استند الخبر على ثنائيات من المفردات المهمّة والتي تطبع بداية حكاية بلوقيا العجيبة على شكل متضادّات فعلية واسمية، على شكل أفعال[60] ومصادر: "خبّأ/وجد"، "فتّش/وجد"، "أقفل/حلّ"، "كتمان/إشهار"، "كتم/عرف"، "كتب/ فكّ". وهكذا يضع موت "أوشيا" حدًّا لكتمان هذه الحقيقة.

وعلى غرار عمليّة "الخزن"، يصوّر الراوي عملية "فكّ" هذا اللغز بطريقة غريبة. فبعد جهد كبير لفتح الصناديق، استطاع بلوقيا فكّه والوصول إلى هذه المعرفة المشبّهة بـ"الكنز" والموسومة "بالحق". قرأ بلوقيا الأوراق واطّلع على فحواها ووعى مغزاها فأثارت غضبه وصرّح: "الويل لك يا أبتِ من الله فيما كتمت"[61]. ومباشرة كان القرار الأول الذي اتخّذه إزاء هذه المعلومة أن قام بإخراجها من غيابات الخزائن وباح بها إلى قومه وألحقها بالتوراة، "مكانها الطبيعي" حيث سيقرؤها ويعيد قراءتها الكثير من القرّاء. فهذه المعلومة المهمّة التي عثر عليها بلوقيا صُدفة ستغيّر تفكيره ومسار حياته وتدفعه إلى القيام بمغامرة عجيبة تخرجه من رغد العيش والطمأنينة المسطّرة إلى عالم المغامرة والمحن والتعب والخوف.

---

56 - نجد في رواية الليالي عناصر أخرى تمتّ بصلة إلى حكايتنا، حيث نقرأ: "فتح بلوقيا خزانة من خزائن أبيه فوجد فيها **صورة باب** ففتحه ودخل، فإذا هو بخلوة صغيرة وفيها عمود من الرخام الأبيض وفوقه صندوق من الأبنوس، ففتحه فوجد فيه صندوقاً آخر من الذهب رأى فيه كتاباً ففتحه وقرأه فوجد فيه وصفاً للرسول صلى الله عليه وسلم وأنّه يبعث في آخر الزمان ومن تبعه كان من السعداء، والكتاب مستخرج من التوراة وصحف إبراهيم عليه السلام».

57 - نوع من الشجر الاستوائي ذو أخشاب صلبة.

58 - نصادف عنصر الأوراق الموضوعة في صندوق في بداية حكاية حاسب كريم الدين: "ثم بعد أيام سافر (الحكيم اليوناني أبو حاسب كريم الدين) إلى مكان في مركب فانكسرت به المركب وراحت كتبه في البحر وطلع هو على لوح من تلك السفينة وكان معه خمس ورقات بقيت من الكتب التي وقعت منه في البحر فلما رجع إلى بيته، وضع تلك الأوراق في صندوق وقفل عليها وكانت زوجته قد ظهر حملها فقال لها: اعلمي أنّي قد دنت وفاتي وقرب انتقالي من دار الفناء إلى دار البقاء وأنت حامل، فربما تلدين بعد موتي صبياً ذكراً، فإذا وضعته فسمّيه حاسب كريم الدين وربّيه أحسن التربية فإذا كبر وقال لك: ما خلّف لي أبي من الميراث فأعطيه هذه الخمس ورقات فإذا قرأها وعرف معناها يصير أعلم أهل زمانه ثم إنّه ودّعها وشهق شهقة ففارق الدنيا وما فيها رحمة الله تعالى عليه، فبكت عليه أهله وأصحابه ثم غسلوه وأخرجوه خرجة عظيمة ودفنوه ورجعوا».

59 - عنصر القفل مكرّر في بداية حكاية حاسب كريم الدين.

60 - استعمل السرد أوزانًا فعلية مثل "فعّل" (خبّأ/ فتّش..) و"أفعل" (أقفل) لتعميق الدلالة وتصوير الحدث.

61 - يستعمل القرآن فعل "كتم" في مجموعة من الآيات التي يربطها المفسّرون بسياق الكتمان الذي تتحدّث عنه حكاية بلوقيا. انظر مثلاً سورة البقرة الآيات 146 و159 و174

فمن خلال هذه اللوحة السرديّة يقحمنا الراوي داخل الأحداث ونعيش معه عمليتيْ البحث والكشف بجانبَيْهما الدرامي وأسلوبهما التشويقي، والتدرّج معه من فكّ للتابوت وفكّ للصندوق إلى فكّ للأوراق والحصول على معرفة. جهد ومجاهدة على شاكلة المتصوّف الذي يرتقي في المسالك ويجتهد في الطلب. فقد استعمل السرد فعل "فكّ" مرّات عديدة للتركيز على أنّ هذه العملية ليست سهلة وليست في متناول أيّ أحد. فبلوقيا هو البطل المنتظر والمؤهّل الوحيد لهذه المهمّة. فلو لم يكن بلوقيا ابن أوشيا الإمام والقاضي، وما تلتزمه هذه المهامّ من معرفة ودراية وحكمة، لما حصّل على هذا "الكنز المعرفي". فهذا الفكّ هو فكّ أوراق (القراءة) وفكّ رموز وفكّ مستقبل وتصحيح "خطأ". وهنا يكمن البعد الصوفي والعرفاني للقصّة التي تتقاسمه مع حكاية الخضر كما أشرنا إليه سابقاً.

من بين الوظائف التي كان يقوم بها أبو بلوقيا القضاء والإمامة، وهما وظيفتان مهمّتان، فالقاضي لابدّ أن يعدل والإمام لابدّ أن يكون نزيهاً. لكن ما حدث هو أنّ أبا بلوقيا بفعله هذا لم "يعدل" في هذه القضيّة، فقد خبّأ وثائق "الحقيقة" على قومه و"أضلّهم".[62] ونتساءل لماذا لم يقم أبو بلوقيا بإتلافها أو إحراقها؟ فالكتم بهذا الوصف يعطينا عنصرًا مهمّاً في تكوين الحكاية. فهذا الاكتشاف الناتج عن البحث جرى، كما يريد أن يوهمنا الراوي، بالصدفة.

فعنصرا الكتمان والإقصاء، بالنسبة إلى القاص الشعبي، عنصران هامّان وحولهما تمحورت الحكاية. فهما الحافز المباشر الذي دفع بلوقيا إلى القيام برحلته ومغامراته في البرّ والبحر وعوالم أخرى. ويمكن التساؤل كذلك في مقتبل هذا التحليل: لماذا لم يكتف بلوقيا بهذه المعرفة التي جاءت بها الوثائق ويتخلّى عن مشروع الرحلة؟ علماً بأنّ قومه صدّقوه إلى حدّ كبير وأرادوا أن يعاقبوا أباه (أوشيا)، كما يحدّثنا النص على لسان قومه: "**يا بلوقيا لولا أنّك إمامنا وكبيرنا لنبشنا قبره وأخرجناه منه وأحرقناه بالنار**"[63]. فهناك إذاً ثلاثة قرارات يمكن ربطها بعملية التفتيش والبحث. فقوم بلوقيا اقترحوا عليه أوّلاً نبش قبر أبيه وإخراج جثته وإحراقها، ثانياً إلحاق "نعت النبي صلى الله عليه وسلم وأمته بالتوراة، وأخيراً إعادة الأوراق إلى مكانها الطبيعي (التوراة) قبل كلّ "تحريف". والأفعال المستعملة في السرد مثل "لحق" و"وصل" تظهر أنّ هناك بترًا وقطعًا لأوراق لا بدّ من إعادتها، و"حقيقة" لابدّ من إحيائها وإفشائها!

بعد قراءة الافتتاح المكوّن من عشرين سطراً يتّضح بناء الشطر الأول من حكاية بلوقيا بمثابة ديكور وضعت فيه القصّة ومنه انبثقت. والملاحظة الأولى التي نقدّمها تكمن في غياب العنصر العجائبي على عكس الشطر الأخير الذي سنتطرّق إليه. فكلّ العناصر والأشياء المذكورة تدلّ على خطاب سردي يحاذي

62 - لا يذكر الراوي اللغة التي كتب بها نعت النبي، وإن كان التأويل الأوّل يميل إلى اللغة العبرية وإلى أوراق توراتية قطعها وأزالها أبو بلوقيا ووضعها في صندوق! وهذا التأويل يتماشى مع منطق أحداث القصة.

63 - العرائس، ص 315

"الواقعية"، يروى داخل تركيبة جدّ محبوكة، فالأسماء والأحداث والأمكنة والشخصيّات كلّها توهم أنّ القصّة وقعت فعلاً!

الرحلة هي الحلّ

مباشرة بعد الافتتاح تدخل القصّة في عالم الرحلة وعالم العجيب، وتمتزج بعالم الغيب والرؤيا حيث كلّ شيء ممكن، والأحداث تصوّر بدون الحواجز الجغرافية المعروفة. فبداية، ليس هناك ما يشير إلى رغبة بلوقيا في الرحلة، فهناك مجموعة من المؤشّرات، كما أسلفنا، تدلّ على استقراره. فعلى المستوى الشخصي ينتمي بلوقيا إلى عائلة غنيّة ومهيّأة لولاية عهد أبيه مما يجعل الرحلة حدثاً طارئاً في القصّة أثارتها عناصر أخرى. رحلة تحوّل وتغيير من حالة إلى حالة أخرى، نابعة من دافع ديني حرّكها وصنعها. فالبطل يجد نفسه مضطرًا، بعد كلّ هذا، للقيام بها. فكيف يصوّر السرد ذلك؟

يطمح بلوقيا إلى أكثر من المعرفة المسطّرة في الأوراق التي عثر عليها. فـخبر اكتشاف نبوّة محمد كان له وقع شديد عليه، [64] وقراءة وصفه في الأوراق لم تشف غليله. فنفسه تاقت لرؤيته ولقائه ومشاهدته والدخول في دينه. ومن هنا تنبع فكرة الرحلة: «**وكانت أم بلوقيا من الأحياء فاستأذنها[65] في الخروج إلى بلاد الشام وكانوا يومئذ ببلاد مصر فقالت له: وما تصنع بالشام فقال: أسأل عن محمد وأمّته فلعلّ الله تعالى يرزقني الدخول في دينه. فأذنت له.**»[66]

تعرّف بلوقيا على هذه النبوّة، وكما أشرنا إليه، «بالصدفة» (فتح الصندوق) وتوصّل إلى معرفة مكتوبة يريد التحقّق والتيقّن منها وتكرار الشهود عليها، وهذا ما تكرّره مختلف الشخصيات التي يلتقي بها من حيوانات وملائكة ومسوخ وجنّ وإنس. فنحن إذن داخل متن يعدّد الإشارات المكتوبة والشهادات الشفهية على نبيّ الإسلام. سرد يوسّع من دائرة التنقّلات عبر محطّات ومسالك متعدّدة.

مسالك ومحطّات ولقاءات

لا يشير السرد إلى أيّ تحضير للرحلة، فنحن في عالم الحَكْيَ. والعنصر الوحيد المذكور هو استئذان بلوقيا أمّه للخروج. فإجمالاً بُنيت الرحلة على أساس بنية دائرية في المكان وعلى ميزة تكرارية لبعض الأمكنة والمسالك. فالرحلة انطلقت من مكان مركزي معيّن (مصر) وعادت في آخر المطاف إلى المكان

64 - تستعمل رواية "الليالي" عبارة "تعلق قلبي به" يعني النبيَ محمّدًا.

65 - يفصّل راوي "الليالي هذا العنصر على الطريقة التالية: "...ودخل على أمّه وقال لها: يا أمّي إنيّ رأيت في خزائن أبي كتاب صفة محمد صلى الله عليه وسلم، وهو نبيّ يبعث في آخر الزمان وقد تعلّق قلبي بحبه وأنا أريد أن أسيح في البلاد حتى أجتمع به فإنّي إن لم أجتمع به متّ غراماً في حبّه، ثم نزع ثيابه ولبس عباءة وزربوناً وقال لا تنسيني يا أمي من الدعاء، فبكت عليه أمه وقالت له: كيف يكون حالنا بعدك؟ قال بلوقيا: ما بقي لي صبر أبداً وقد فوضت أمري وأمرك إلى الله تعالى". ألف ليلة وليلة، ج5، ص 84

66 - العرائس، ص 315

نفسه (مصر) لحكي المشاهد ورواية الأحداث. وما حضور بعض الأمكنة مثل بيت المقدس[67] إلاّ لخدمة السرد بدلالة رمزية ودينيّة تذكرنا برحلة الإسراء والمعراج المشهورة في المخيال الإسلامي. واختيار هذا المكان راجع كذلك إلى مرجعيته الدينية والقدسيّة عند أبناء الأديان الثلاثة وعلاقته المباشرة بتعلّق نصّنا بشخصيّة النبيّ سليمان المذكورة في متن القصة.

ويلاحظ القارئ المتأنّي أنّ بلوقيا لا يصنع الحدث بل إنّه نتيجة لمسار أحداث متفرّقة في متن السرد وكأنّه على خشبة مسرحية يقوم بأدوار مختلفة ولقاءات مع شخوص مختلفة الانتماء، يعيش أحداثاً واكتشافات متنوّعة الأوصاف. فرحلتنا تبقى إلى حدّ ما أفقية في حين أنّ رحلة المعراج عمودية، وهذه الأفقية النسبيّة، كما سنرى، تتجلّى في الجُزُر والبحار والأراضي التي قطعها البطل.[68] فإضافة إلى أماكن أخرى، مرّ بلوقيا بجزيرة "كأنّها الجنّة" وأخرى تذكّرنا بوصف "عالم جهنّم"، وهو ما يخرج الرحلة من عالمها الأفقي إلى عالم عمودي أخروي، كما هو الحال في الوحدات السردية التي توجد في حكاية الإسراء والمعراج.

أما «أماكن العبور» فهي كثيرة في الرحلة يذكرها الراوي مستعملاً سلسلة معجميّة من الأفعال والكلمات والعبارات التي تصوّر الحركة والتنقّل، كـ«استأذن الخروج"، و"سار حتّى انتهى"، و"مضى"، و"ذهب"، و"برز"، "حتى وصل"، و"انتهى إلى أقصى الأعمال"، و"جاز". وكلّما وصل بلوقيا وحيداً أو برفقة صديقه الوحيد عفّان الخير[69] إلى مكان من الأمكنة إلاّ وكان له لقاء أو وقع له حدث يعوق دون وصوله إلى هدفه الأساسي. وقفات غنيّة من ناحية المعرفة التي حصّل عليها البطل، تمليها كذلك وظيفة البحث التي يقوم بها. ففي كلّ محطّة يلتقي بشخوص جديدة وفي كلّ مرّة يسأل ويدقّق ويعرف ويعتبر. وهذا الكمّ الخبري أنتج لنا رحلة مكوّنة من محطّات ولقاءات وحوارات متعدّدة ومغايرة. فبلوقيا يلتقي بمجموعة من الشخصيات (عفّان/الخضر) والحيوانات (حيّات) والجنّ والملائكة تؤلّف معظمها أنساق الخطاب القصصي. فالمسالك الغريبة والأمكنة المرسومة وتموقع بلوقيا داخلها كلّ ذلك يمثّل وحدات سردية مختلفة، نلخّص محطاتها في الخانات التالية:

67 - الخروج والاتّجاه نحو بيت المقدس له دلالة عميقة، الاتجاه الجغرافي والرمزي نفسه اتخذته حكاية الإسراء والمعراج وهو ما يجعل "مدينة القدس" حاضرة في الروايات الإسلامية المبكرة ومكانتها الأولى قبلةً للمسلمين قبل تحويل القبلة إلى مكة. وقد ذكر الثعلبي في كتابه "العرائس" فصلاً لذكر القدس وفضائله، وهو ما يطرح هنا علاقة سرديات قصص الأنبياء ببيت المقدس والمعنى الروحي لها. ويلاحظ قارئ رحلة بلوقيا عدم ذكر مكة أو أيّ إشارة إلى الجزيرة العربية، وهذا ما يجعلنا نفترض قدم هذه الحكاية ورجوعها إلى الفترات الأولى من الإسلام الناشئ، لكن لا نملك أي دليل على هذا الافتراض.

68 - في بداية رواية "الليالي" نقرأ أنّ بلوقيا ركب مراكب وسافر مع ركاب.

69 - الإحالات إلى لقاء شخصيات آدمية محدودة في الرحلة فهناك: "لقاء شيخ وشاب ومشايخ" ولقاء "غلام أبيض وأمرد بين قبرين اسمه صالح يبكي أبويه"، وأخيراً لقاء "أبو العباس الخضر".

1	2	3	4
فكرة الرحلة والخروج. بلوقيا أمّه استئذان في السفر بحثاً عن النبيّ محمّد.	تبدأ المسيرة إلى الشام بالانتقال إلى الجزيرة الأولى ولقاء الحيّات العظيمة والحوار معها، ووصف لعالم جهنّم.	الجزيرة الثانية ولقاء ملكة الحيات تمليخا.	بيت المقدس واللّقاء مع الحبر عفان، والسير على الماء بواسطة الدهن، واكتشاف قبر سليمان ومحاولة الحصول على خاتم سليمان، وأخيراً صيحة جبرائيل وموت عفان ونجاة بلوقيا.

5	6	7	8
محطة التيه والوصول إلى جزيرة الذهب. الأشجار تكلّم بلوقيا، بعد ذلك يلتقي بصخر ملك الجنّ. وصف لعالم الجنّ وجهنّم	يصل إلى أقصى أعمال ملك الجنّ على ظهر فرس عجيبة. ويلتقي بشيخ وشاب ومشايخ.	يلتقي الملَك يوحاييل الموكّل بالظلمة والنور والليل والنهار.	يلتقي مخاييل ملَك الريح. ويكتشف الريح الهائمة.

9	10	11	12
يلتقي بأربعة ملائكة رؤوسهم ثور ونسر وأسد وإنسان يدعون ويسبّحون لله.	الوصول إلى جبل قاف ولقاء حزقائيل أمين الجبل.	الوصول إلى الحجاب الذي طرفه في السماء وأسفله في الماء وهو مقفل وعليه حرّاس، ملكان (ثور وكبش)	يلتقي بملائكة مجمع البحرين، المالح والعذب.

13	14	15	16
يصل بلوقيا إلى بحر عظيم فيه حيتان يحكمها حوت عظيم تسبّح لله. يأكل طعاماً عجيباً يسمى القرص الأبيض.	يلتقي بالملائكة إسرافيل وميكائيل وجبرائيل.	يلتقي بغلام اسمه صالح يبكي بين قبرين.	الوصول إلى جزيرة تشبه الجنّة والأكل من مائدة الجنّة التي لا تتغيّر ولا تنقص. وفي الأخير يتمّ اللّقاء مع الخضر الذي يساعده للرجوع إلى مصر.

نلاحظ من خلال اللّوحة تنوّع المحطّات والأمكنة التي قطعها بلوقيا، وإن كان يطغى على هذه الأمكنة العنصر المائي (الجزر والبحار). فمنذ بداية السرد يتحدّث الراوي عن مكان وقوع الحدث الأول (اكتشاف الأوراق) في «مصر» التي يمكن اعتبارها نقطة انطلاق الحكاية[70]. واختيار «مصر» ليس اعتباطياً. فالشخصيات المكوّنة للقصة لابدّ أن توضع داخل فضاء جغرافي له مكانته الدينية والرمزية لبني إسرائيل والتوراة. فهذا التدقيق في ذكر المكان في السرد يجعلنا نفهم بطريقة واضحة انتماء بلوقيا، فالرحلة كما ذكرنا تنطلق من مصر وتعود إلى مصر وهذا له دلالته!

يحدّد بلوقيا منذ البداية "بلاد الشام" وجهةً أولى مبرمجة: "**... فقالت (له أمّه): وما تصنع بالشام؟ قال: أسأل عن محمد وأمّته، فلعلّ الله تعالى أن يرزقني الدخول في دينه، فأذنت له. فبرز بلوقيا ليدخل بلاد الشام. فبينما هو يسير إذ انتهى إلى جزيرة من جزائر البحر...**"[71]

ليس المهمّ في سفر بلوقيا المكان الذي يودّ الوصول إليه وإنّما التوقّفات وهي عديدة. ففي كل وقفة لقاء وحوار واستمرارية تصنع الرحلة ومعها السرد. وهذا يذكرنا بمغامرات السندباد ورحلاته، وهو ما يخوّل الكلام على رحلات (باستعمال الجمع) بلوقيا. فمن هذه الزاوية تصبح القصّة مهمّة لأنّ البطل لم يتوصّل إلى هدفه المنشود والمسطّر ونعيش معه من خلال أماكن العبور (الجزر والعوالم الأخرى) مغامراته ومحنه ولقاءاته.

70 - رواية "الليالي" تتكلّم على مدينة مصر في حين نجد عبارة بلاد مصر لدى الثعلبي.

71 - العرائس، ص 315

وتنتهي الرحلة برجوع البطل إلى وطنه ويُفصح السرد عن هذه الرغبة: "**طالت غيبتي وأريد الرجوع عند أمّي، غمض عينيه فإذا هو جالس عند أمّه فسألها من جاء بي قالت طير أبيض يطير بك بين السماء والأرض فوضعك قدّامي**".[72]

بعد الجرد والتصنيف السالفيْن تظهر محطّات السرد بمثابة نتاج يمزج بين عوالم وأمكنة وشخوص تبدو متباعدة لكنّها تكوّن المتخيّل الديني والأسطوري الذي أنتجته الثقافة الإسلامية. فهناك أماكن حقيقية تجاور أماكن أخرى تدخل في المعجم الديني. فهناك أماكن الملائكة وأماكن الجنّ وأمكنة العذاب (جهنّم) وأمكنة اللّذة والمتعة (الجنّة) وأمكنة الموت (القبور) ومملكات الحيّات والحيوانات العجيبة. ممالك ومسالك وعوالم ومملكات يلعب في وصفها الغريب والعجيب دوراً مهمّاً. والمزج بين هذه العوالم والجغرافيات والأمكنة والأشخاص والأزمنة له وظيفته في تكوين الحكاية. أمكنة تاريخية، لها مكانتها الدينية والرمزية كمصر والشام وبيت المقدس، تحاذي أمكنة بعيدة عن الرؤية كعوالم الآخرة والغيب. هذه الأشياء الغيبية التي تقرّبها عين القاص الشعبي، عين تسبح في فضاءات بعيدة عن الرؤية واصفة أشياء تدخل في باب "ما لا عين رأت"، تتجلّى في معجم عجائبيّ متعدّد الأوصاف.

5- تجليّات المعجم العجائبي

«قال بلوقيا: **هذا والله لعجيب. فقالوا عجائب الله لا تنقضي ...**»[73]. هكذا يصف السرد الرحلة، رحلة مبنيّة على العنصر العجائبيّ المشروط بقدرة الله. ونتساءل لماذا أقحمت هذه الحكاية الدينيّة العجيب والغريب في بنائها؟ وما هي الغاية من ذلك؟

استطاع القاصّ والرواة القدامى عموماً إخراج رحلة بلوقيا وتوضيبها بفعل عناصر مشتركة مع مجموعة من الحكايات والأخبار العجيبة. فنحن أمام أنموذج سردي عامّ وإلى حدّ ما كونيّ. فاستعمال عناصر الجنّ والملك والحيوان العجائبي والأمكنة الغريبة سواء الدينية منها أو الخرافية نجده في كثير من السرديات الإسلامية المختلفة. فبتحويل هذه العناصر وتحويرها تفتّقت القصّة وانجلى السرد. فإذا كان بلوقيا كياناً عجائبيّاً يتمتّع بالتنقّل داخل رحلة ترسم «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»، فقد كان لزاماً على الراوي وضعه في دوائر فعلية سردية يشكّلها العجيب والغريب مكوّنًا أساسيًّا. فالبنية العجائبية واضحة المعالم من خلال تمظهرات وتجليّات المتخيّل في المحكي وتوغّله في مكنونات الأوصاف. إنّ العجائبي (كما سنعانيه في الأمثلة) يجمع بين الخيال الخلاّق والمبدع للصور والمخترق لحدود المعقول والتاريخي صانعاً لوحات سردية ترسم عوالم لامرئية ولا مألوفة، فرحلة بلوقيا هي إلى حدّ ما اكتشاف لهذا العجيب ووضعه في متناول المتلقّي.

72 - العرائس، ص ص 321 و322

73 - العرائس، ص 318

فجذر «ع/ج/ب» حاضر بِجِدّة في متن القصة وفي صياغة تصرّفات الرحلة ووصفها، كما تقرّبنا منه المقاطع التالية:

- «ثم إنّ بلوقيا حدّث بني إسرائيل ما رأى من **العجائب** والأخبار فأثبتوها وكتبوها إلى يومنا هذا».

- "قال بلوقيا هذا والله لعجيب، فقالوا: **عجائب** الله لا تنقضي".

- "فبقي **متعجّباً**".

- "ذكر بلوقيا اسم الله **فتعجّبوا** منه وهابوه".

- وتختم الحكاية بالعبارة: "فهذا ما كان من حديث بلوقيا وما رأى من **العجائب** في البحر والبرّ سهلا وجبلاً والله أعلم".

فالعجائبي، كما يصفه القزويني، يأخذ شكل "حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء أو عن معرفة كيفيّة تأثيره فيه"، في حين أنّ الغريب هو "كلّ أمر عجيب قليل الوقوع مخالف للعادات المعهودة والمشاهدات المألوفة، وذلك إمّا من تأثير نفوس قويّة أو تأثير أمور فلكيّة أو أجرام عنصريّة، كلّ ذلك بقدرة الله تعالى".[74] فهذا العنصر الأخير، أي القدرة الإلهية، له حضوره في متن رحلة بلوقيا ويلخّص نقطة في غاية الأهمية نابعة من رؤية إسلامية، تُكوّن معتقداً ومخيالاً مشتركاً وتفسّر الظواهر العجائبية وتتيح إمكانيتها. وهذا ما يشير إليه السرد على لسان بعض الشخوص بـ«**عجائب الله لا تنقضي**». ويشترط في مصطلح **العجيب** كذلك الغرابة والخروج عن المألوف. أمّا أدبياً فمصطلح العجيب يعني كلّ «شكل من أشكال القصّ، تعترض فيه الشخصيات بقوانين جديدة تعارض قوانين الواقع التجريبي»[75]. وبذلك يصبح هذا النوع من السرد بعيداً عن الواقع بطريقة تسمح نوعاً ما بالاقتراب من حدود اللاّمعقول واللاّمألوف. ووجود العجائبي في النص السردي «يترك أثراً خاصاً في القارئ خوفاً أو هولاً، أو مجرّد حبّ استطلاع، الشيء الذي لا تقدر الأجناس الأخرى على توليده. فالعجائبي لا يزيّن فقط السرد بل يخدمه، وحضوره يتيح تنظيماً للحبكة مكثّفاً بصورة خاصّة.[76] ويبقى البعد العجائبي في الثقافة الإسلامية منبثقًا من الأخبار العجائبية الموجودة في بطون مجموعة من الكتابات القديمة خاصة تلك الأشكال المنبثقة من أصول شفاهية، كالقصص الديني، وألف ليلة وليلة، والسِيَر الشعبية الخ... والتي تحمل خلاصة إبداعيّة مميّزة للكون والحياة انطلاقاً من مزج الواقعي والخرافي والديني.

74 - زكريا القزويني، "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات"، دار الآفاق الجديدة، 1978 ص 10. وص 15

75 - تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، دار شرقيات للنشر، 1994، ص 49

76 - تودوروف، المرجع نفسه، ص 49

ألف زمان ومكان

زمن الرحلة غير محدّد والإشارات له غير واضحة، بحيث تجري الأحداث في البداية في فترة زمنية تقع حسب الرواية ما قبل نبوّة محمد وبعد وفاة سليمان. فترة مفتوحة وطويلة، لا تخلو من تداخل زمني. فإذا كان المكان، إلى حدّ ما، واضحًا ومذكورًا ومتعدّدًا، فإنّ الزمان مخفيّ ومستتر وراء المكان، وهو ما يجعلنا نفكّر في «زمن الحلم والرؤيا» وزمن «الآخرة» أكثر من الزمن التاريخي.[77] فالقاص يقحمنا في رحلة نجهل تحديد زمن بدايتها ومدّة استغراقها منتقّلاً بنا في عوالم ما فوق الطبيعة والزمن. زمن يكتنفه الغموض، يفارق زمننا العادي المكوّن من مقاييس الليل والنهار والساعة واليوم والشهر والسنة الخ. فإذا كانت هذه المقاييس السالفة مذكورة في متن القصّة فإنّها تحمل دلالات أخرى، على غرار عنصر المسافة (الفرسخ) المصوّر بواسطة أرقام مذهلة. وعندما نصادف ذكر الزمن العادي الذي يشبه زماننا مثلاً عندما يدخل بلوقيا بيت المقدس ويلتقي بعفّان الذي يخاطبه بأنّ هذا الزمان «ليس زمان محمّد ولا زمان أمّته، بينك وبينه قرون وسنون»، فإنّ هذا التأكيد الزمنيّ لا يلعب دوراً أساسياً في الحكاية. وفي السياق نفسه تبقى كذلك الأفعال مثل «سار» و«مضى» و«خرج» التي استعملتها الحكاية عبارة عن أفعال تتكرّر بدون حمولة زمنية دالّة، فهي تربط فقط الأحداث داخل سياق معيّن وبدون تحديد زمني واضح.[78]

أما الفضاء فيتجلّى في الرحلة من خلال تقاطع لمجموعة من الأمكنة تنتمي إلى عالم الواقع والدين والعجائب والغرائب تناغمت فيما بينها راسمة مدار الحكاية وحدودها. أمكنة مختلفة تصبح مسرحاً للرحلة ومُسوِّغاً للحَكْي تولّده وتمدّده عن طريق تنقّلات البطل (بلوقيا) عبرها صانعاً للسرد متاهاته وتجليّاته. أماكن وجغرافية يستعصي بعضها على المستمع المؤمن ويخاطب بعضها الآخر مخياله الديني، ولمعاينة ذلك نذكرها إجمالاً، فهناك: «بلاد الشام»، «مصر»، «بيت المقدس»، «الأرض»، «عروق الأرض»، «الأرضون»، «السماء»، «الأرض والسماء»، «حجاب طرفه في السماء وأسفله في الماء»، «البر»، «الدنيا»، «البحر»، «البحر العظيم»، «البحار السبعة»، «ستّة أبحر»، «ساحل البحر، اليم»، «البحر العظيم، البحر»، «حاجز البحر المالح والعذب»، «البحران اللذان يلتقيان»، «الجزر»، «الجزيرة التي تشبه الجنة»، «جزيرة من ذهب»، «الجبال»، «جبل وسط البحر»، «جبل قاف»، «عروق الجبل»، «القمر»، «العمران»، «جهنّم، الجنّة»، «أقصى الأعمال»، «وراء الحجب»، «موضع الحية»، «كهف سليمان» الخ.

77 - «Un Temps primordial, non identifiable au passé historique» , disait M. Eliade in Le sacré et le profane, Ga - limard, Folio Essai, 1987, p.66

78 - يظهر أنّ بال راوي حكاية بلوقيا كان مشغولاً بتطوّر الحدث أكثر من قياس الزمن وتحديده. فالقصّة حاملة لمشروع وفكرة دينيّة أكثر من شيء آخر، رحلة في عالم المقدّس.

يدرج الراوي منذ بداية الحكاية أماكن حقيقية ومعروفة (مصر، الشام، بيت المقدس)[79] لكن سرعان ما يتخلّى عنها واضعاً مجريات الرحلة داخل عوالم أخرى موزّعة داخل جغرافية ترسم تضاريسها ومعالمها مفاهيم واعتقادات دينية وأوصاف عجائبية[80]، فشعلة العجيب تولّد الأمكنة وتنوّعها وتُنعشها. وتتضافر أسطرة المكان في الحكاية ليبدو تشكيل النص بنيةً تعتمد على الأحداث المتخيّلة المتكرّرة.

فالأمكنة التي سنذكرها، باختصار، في سياقها السردي تعتبر حلقات وصل متعدّدة لفضاء يصعب تحديد جغرافيته، صنعه المقدّس واللاّمألوف كمأوى الجن والملاك والحيوان. تتجوّل بنا عين القاص داخل عوالم **جهنّم** و**الجنّة** تصف خلقاً جهنّميّاً يدعى **جبليت** الموجود في السماء على صورة أسد، **وآخر تمليت** موجود في الأرض وهو على صورة ذئب. ويتساءل بلوقيا في مقطع آخر عند وصوله إلى جزيرة من ذهب حشيشها الورس والزعفران وأشجارها الزيتون والنخل والرمّان، قائلاً: «**ما أشبه هذا المكان بالجنة**»!

ونلتقي **بالجبل** الذي يأخذ أشكالاً متعدّدة، شكل **جبل قاف**، المذكور في القرآن، «**جبل محيط بالدنيا من ياقوتة خضراء عليه أمين ملك حزقيائيل في يده وتر مرّة يعقده ومرّة يحلّه، وعروقه الأرض كلّها مشدودة عليه والوتر في كفّه يضيقه إذا أراد الإله أن يضيّق على عباده ويرخيه إذا أراد الله أن يوسع على عباده**».[81] جبل يمثّل «كليّة الكون»، يحيط به ويضمّه، فكرة نجدها في أساطير أخرى قديمة.[82] أما المكان الموسوم **بما وراء قاف** فهو مكوّن من أربعين دنيا غير الدنيا التي جاء منها بلوقيا. وفي كلّ دنيا، كما يصفه السرد على لسان بعض الشخوص التي تخاطب بلوقيا: «**أربعمائة ألف باب وفي كلّ باب أربعمائة ضعف مثل الدنيا التي جئتَ منها وليست فيها ظلمة، بل كلّها نور أرضها ذهب، وعليها حجب من نور وسكانها الملائكة لا يعرفون آدم ولا إبليس ولا جهنّم وهم يقولون لاإله إلا الله محمد رسول الله**». وهناك **بهموت**، جبل موضوع بين قرنَيْ ثور. **والجبل الأحمر** منبع الذهب **والجبل الأبيض** منبع الفضّة. **وجبل وسط البحر** ليس «**بِعَالٍ ولا متدانٍ ترابُه كالمسك عليه غمام أبيض موضع قبر سليمان النبي**»[83].

ويتابع السرد كذلك وصف فضاءات الاتّصال والانفصال بين عوالم متناهية، **كالحجاب** وهو حيّز يفرّق العوالم «**طرفه في السماء وأسفله في الماء، عليه باب مقفل وعلى القفل خاتم من نور، وعلى الباب ملكان، أحدهما رأسه كرأس الثور والآخر رأسه كرأس الكبش وبدنه كبدن الثور**»[84].

---

79 - فضاءات استهلاليّة واضحة بالنسبة إلى المتلقي عكس الفضاءات الأخرى التي تصنّف في فضاء الغيب الديني.

80 - كلّ فضاءات الرحلة الروحية موصوفة خارج الزمن.

81 - هذا الوصف حاضر كذلك في "العرائس" في مجلس خلق الأرض ص 5

82 - يتحدّث ميرسيا إلياد عن الجبل بوصفه مركز الكون وواسطة بين السماء والأرض، وهذا ما يجلوه قوله:

«La montagne figure parmi les images exprimant le lien entre le Ciel et la Terre; elle est donc censée se trouver au Centre du Monde», op.cit.,p.39.

83 - العرائس، ص 320

84 - العرائس، الصفحة نفسها.

وتتواصل الحكاية عبر أمكنة مختلفة تساهم في إنتاج مغامرة بلوقيا، ويغيّر القاص الأمكنة والفضاءات ويلعب بها ويقحمها في مشروع تخصيب الحكاية والدفع بها إلى أقاصي الحدود. وهذه الميزة تتقاسمها حكايتنا مع مجموعة من السرديات والأخبار القديمة، فعلى عكس النبيّ محمد في رحلة المعراج، لم يقتحم بلوقيا فضاء الحضرة الإلهية لكنّه حظي برؤية الملائكة المقرّبين.

ويحضر **الماء** برمزيته الدينية الخصبة بواسطة عنصري البحر والجُزُر العديدة التي يتنقل داخلها بلوقيا حيث عملية الخلق تأخذ بعدها الديني والرمزي.[85] ومنذ البداية نصادف عنصر الماء، [86] فالجزيرة عبارة عن **عتبة** تفرّق بين عالمين: عالمِ ما قبل الرحلة وعالمِ الدخول فيها، كما يصوّره السرد «**فبينما هو يسير إذ انتهى إلى جزيرة من جزائر البحر فإذا هو بحيّات كأمثال الإبل عظماً**». بوّابة إلى عالم العجيب الإلهي حيث الحيرة والخوف والسؤال والحيوان والمسوخ.

من الحيوان إلى المسوخ

منذ البدء يلعب الحيوان[87] دوراً هامّاً في صياغة حكايتنا، فالحيوان العجائبي[88] ظاهرة سردية تساهم في بناء الحكاية ونافذة كبرى مفتوحة على عالم المدهش والغريب والمقدّس. فعلاوة على تنوّعه، فهو يتكلّم ويُحاور ويخاطب ويتصرّف في السرد. ويسرّب الراوي على لسانه الخطاب الديني والمعتقد الإسلامي، فهو غالباً ما يسبّح للإله وعلى معرفة بنبوّة محمد وأمّته يعيدها ويكرّرها الراوي في أماكن مختلفة.

تقع غالبية أحداث بلوقيا في الجُزُر والبحار، وهو ما يعطي لعنصر **الحوت** دوراً في بناء وحدات سردية، فبلوقيا يلتقي بحيتان كبيرة وعظيمة مؤمنة بالله وسمعت بنبوّة محمد. وعندما يفارق ملك الجنّ فهو يركب على ظهر **فرس طائر** يجوب بواسطته مسيرة مائة وعشرين سنة طيراناً بدون توقّف! وفي نهاية الحكاية يعود إلى موطنه على ظهر **طير أبيض** يقطع به مسيرة خمسمائة سنة في ساعة، كما تقرّبنا منه اللوحة التالية:

«ومضى (بلوقيا) حتى انتهى إلى جزيرة فإذا هو بشجرة عظيمة عليها طائر واقف رأسه من ذهب عيناه من ياقوت ومنقاره من لؤلؤ ويداه من زعفران وقوائمه من زمرّد. وإذا مائدة موضوعة تحت الشجرة

85 - «Une des images exemplaires de la Création, est l'Ile qui soudainement se «manifeste» au milieu des flots» Mircia Eliade, op.cit. p. 112

86 - «Le contact avec l'eau comporte toujours une régénération nouvelle «une naissance», Eliade op.cit.» p.113

87 - الحيوان حاضر في النص القرآني، فبعض السور تحمل أسماء حيوانات مثل البقرة والنمل والنحل والعنكبوت والفيل، إضافة إلى الأسماء المذكورة في صلب السور كالهدهد والحمار والكلب والناقة والذئب والنملة ...الخ، لكن يتعلّق الأمر غالباً بحيوانات مذكورة في سياق تفاصيل وصفية وسردية داخل قصص قرآنية مشهورة، حاملة بذلك رموزًا معيّنة.

88 - الحيوان العجائبي أو المسخ هو عبارة عن حيوان غريب لم يشاهده خالقه ولكن في الوقت نفسه وليد مخيّلته. حيوان يختلف عن الحيوانات الطبيعية الأخرى التي تعرف مسمّيات وتمثّلات واضحة. فهو غير مألوف وتضيع فيه جميع الفروق. وهذا النوع من الحيوان له حضور داخل سرديات الثعلبي ويلعب دورًا هامًا في تطوير الحكي.

وعليها طعام وحُوت مشويّ فسلّم عليه بلوقيا فردّ الطائر عليه السلام فقال له بلوقيا من أنت أيّها الطائر؟ قال أنا من طيور الجنّة.»[89]

حديث بلوقيا، كما يقول الراوي الثعلبي، مليء بالعجائب والأخبار الغريبة، فهذا **الطائر الفردوسي** ينتمي إلى عالم لم تره العين (عالم الجنّة)، طائر مكوّن من الذهب والياقوت واللؤلؤ والزعفران والزمرد إضافة إلى عنصر الكلام. وصف مركّب ومتداخل صنعته العجائبية ورسمته برونقها وبُعْدها الجمالي اللذين يشدّان المتلقّي إلى هذا النوع من القصص.

وتذكر الرحلة في تطوّرها السردي **ثور الجنة** أو الثور الفردوسي المذكور غالباً في أسطورة خلق الكون، في المجالس الأولى من العرائس، وهذا الثور يدعى **بهموت** أهبطه الله من الجنة للقيام بمهمّة استقرار الأرض وتوازنها. «ثور له سبعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة وجعل قرار قدمي الملك على سنامه فلم تستقر قدماه.» **وتض**يف القصة أنّ هذا الثور الذي يحمل الاسم نفسه في الرحلة **هو** «أبيض، رأسه بالمشرق ومؤخّره بالمغرب بين قرنيه مسيرة ثلاثين ألف سنة وهو ساجد لربه تعالى على صخرة بيضاء». **ولقب** بهموت الذي يعطيه الراوي لهذا الثور هو الاسم نفسه الذي يحمله **الحوت العظيم** المكلّف بحمل الصخرة في أسطورة خلق الكون، حيوان ضخم الحجم مثل فرس النهر، المذكور في أساطير ومعتقدات أخرى.

نصادف **الحيّة** في مقاطع كثيرة من حكاية بلوقيا حيث نقرأ وصفاً لحيّات جهنّمية بطريقة مرعبة فيها تهويل وتركيز على عنصر الضخامة «**كالإبل، وأمثال الجذوع والسواري**».[90] حيّات تطير وأخرى متنوّعة الألوان تقوم كذلك بوظائف مختلفة وتحت إمارة ملكة الحيّات **تمليخا**.[91] وتبقى عموماً الصورة المرسومة للحيّات غير واضحة بحيث يصعب تمثّلها ذهنيّاً، وما يعلق بالذهن يمتّ بصفات الضخامة والرهبة والمسالمة والتسبيح. فأغلبها لا يخرج عن طاعة الإله:

"قال لهنّ بلوقيا: أيّتها الحيّات من أنتنّ؟ فقلن: نحن من حيّات جهنّم ونحن نعذّب الكفار فيها يوم القيامة... قالت جهنّم: أيّتها الحيّات هل في جهنّم مثلكن أو أكبر منكنّ. فقلن: إنّ في جهنّم حيّات تدخل إحدانا في أنف إحداهنّ وتخرج من فيها ولا تشعر بها لعظمها»[92].

يلتقي القارئ **بالتنّين** في مجموعة من السرديات والميثولوجيات والمعتقدات القديمة. فإذا كان التنّين يرمز بصفة عامة داخل المعتقدات القديمة إلى الشرّ والأهواء الشيطانية، فإنّه في المكان الذي يضعه فيه

89 - العرائس، ص 321

90 - ليست هذه أوّل مرّة يذكر فيها الثعلبي هذه الحيّات العظام، ففي "مجلس خلق الأرض" نقرأ الوصف التالي المتعلّق بحيّات أهل النار: "كأمثال الأودية لكلّ حيّة منها ثمانية عشر ألف ناب، كلّ ناب منها كالنخلة الطويلة في أصل كلّ ناب ثمانية ألف قُلّة من السمّ ..." العرائس، ص 6

91 - يصفه راوي "الليالي" كالتالي: "حيّة بيضاء أبيض من البلور، وهي جالسة على طبق من الذهب وذلك الطبق على ظهر حيّة مثل الفيل، وتلك الحية ملكة الحيّات"، ألف ليلة وليلة، ج5، ص 87

92 - العرائس، ص 316

الثعلبي يصبح من المخلوقات الإلهية في خدمة الخير ورمزاً للطاعة الإلهية.[93] فالتنّين مكلّف بحراسة السرير الموجودة عليه جثّة النبيّ سليمان وهو الذي يقتل عفان (صاحب بلوقيا) حين حاول أخذ خاتم سليمان **فـ«نفخ من بطنه شعلة نار كأنّها البرق الخاطف، فاحترق عفّان. وعادت نفخته في البحر فما مرّت البرقة بشيء إلاّ أحرقته ولا بماء إلاّ أجاشته وأغلّته»**[94].

تُظهر الأمثلة التي استعرضناها بعجالة إلى أيّ حدّ أعطى الراوي الحريّة لمخيّلته لترتيب عناصر حيوانية عجائبيّة ندرجها بسهولة في عالم المسخ ومكوّناته. فوراء هذه المشاهد الشيّقة أحياناً والمخيفة أخرى نجد ريشة القاصّ. فهو نفسه الذي أدرج هذا النوع من الحيوان في تركيبة أسطورة خلق الكون والسرديّات الأخرى المنظّمة في كتاب العرائس وأخبار طوال أخرى. فالثور الفردوسي والحوت العظيم والعقارب الضخمة والحيّات المتعدّدة الأجنحة والأوصاف تؤكّد جميعها هذا الحضور حيث يضع الخيال فصلاً بينه وبين عالم الطبيعة. فالحيوان العجائبي يحمل مغايرة واختلافاً مع النظرة التي نملكها عادة عن الحيوان الطبيعي. فهو، كما عايناّه في الأمثلة، موزّع بين عالم المحال وعالم الخيال، ومن ثمّ يشكّل عالماً مضادًا يؤثّر في مخيّلة المتلقي. حيوانات خاضعة لتركيبات عنصرية غريبة ناتجة عن مفارقات ناجمة عن مرويات شفاهية قديمة ساهمت في استلهامها واقتباسها وأحياناً تكوينها وتصنيفها. فهذا اللعب بالعناصر والأعضاء في تكوين الحيوان العجائبي، الموجود في ثقافات متعدّدة، يدخله الراوي في سياق المنظومة الدينيّة، في عداد مخلوقات الله التي لا تعرف حدًا ولا نهاية كما يؤكّد ذلك القرآن: **«ويخلق ما لا تعلمون»**[95].

تصوير الملَك والجنّ

نجد هذين العنصرين في تصوير تضيع فيه الفروق، مسوخ أخرى لها علاقة بعالم الإنسان وعالم الطيور. ملائكة على صورة الديك والطيور والثيران والأسود، لها أجنحة وأرجل ومكوّنة أحياناً من عناصر معدنية ذهبية وألوان مختلفة.[96] فعنصر الطول والعظمة، كما هو الحال في العناصر الأخرى، يشدّ الانتباه والعجب. فبواسطة الملك والجنّ (صخر ملك الجنّ) يكتشف بلوقيا أسرار الكون وعمليّة الخلق الإلاهي. معلومات تثيرها أسئلة بلوقيا العديدة التي تحاول سبر كُنه عوالم خفيّة لا يعلمها إلاّ المقرّبون، والملك من هؤلاء المقرّبين الذين يمكن أن يصفوا العالم السماوي وكلّ ما يجري وراء **الحُجب**.

93 - نقرأ في "مجلس خلق السماء" الوصف التالي لحيّة ضخمة: «...لما خلق الله تعالى العرش قال: لم يخلق الله تعالى شيئاً أعظم منيّ فاهتزّ فطوّقه الله بحيّة لها سبعون ألف جناح في كلّ جناح سبعون ألف ريشة في كلّ ريشة سبعون ألف وجه وفي كلّ وجه سبعون ألف فم وفي كلّ فم سبعون ألف لسان يخرج من أفواهها كلّ يوم من التسبيح عدد قطر المطر وورق الشجر وعدد الحصى والثرى وعدد أيام الدنيا والملائكة أجمع، فالتفّت الحيّة بالعرش فالعرش إلى نصف الحيّة وهي ملتوية به»، العرائس، ص 13

94 - العرائس، ص 317

95 - سورة النحل، الآية 8

96 - نجد في مجالس خلق السماء والشمس والقمر عناصر كثيرة تتعلق بعنصر الملك ومختلف الوظائف. انظر الصفحات 11 و12 و18 و19

على غرار الملك يلتقي بلوقيا بطائفة من **الجنّ** في مختلف أسفاره، وعلى رأسهم **صخر.** يحاورهم ويستمدّ منهم معلومات كثيرة حول تنظيم الكون وأسرار الجنّ والشياطين. **فصخر** هذا هو الذي حدّثه كيف خلق الله الجنّ والشياطين، المؤمنين منهم والكفّار وعلى رأسهم **إبليس،** [97] الحارث أبو مُرّة، وهو أوّل خلق الجانّ.

وتلخّص لنا اللوحة التالية أسماء الملائكة المذكورين والوظائف المنوطة بهم:

الملك	الوظيفة
جبرائيل	أمين ربّ العالمين وصاحب الصيحة
يوحاييل	موكّل بظلمة الليل وضوء النهار
مخاييل	موكّل بحبس الريح والريح الهائمة
ملك رأسه كالثور	يدعو للبهائم
ملك رأسه كالأسد	يطلب الرحمة للسباع
ملك كالنسر	يطلب الرحمة للطيور
حزقائيل	أمين على جبل قاف
ملك رأسه كالثور	موكّل بحراسة باب مقفل قرب الحجاب
ملك رأسه كبش وبدنه كبدن الثور	يقوم بالمهمّة السابقة نفسها.
ملك على صورة النملة /عدد كثير	أمناء الله على البحرَيْن: المالح والعذب
إسرافيل	صاحب الصور
ميكائيل	صاحب المطر وأرزاق العباد

وتَظهَر المكانة السردية التي تعطيها الرحلة لعنصر الملك والتعريف به وتدقيق مهامّه ووظائفه. وحدات سردية تتقاسمها الرحلة مع كتابات المتخيّل الديني في الأدب العربي القديم.

لوحة من الشجر

للحصول على البقاء والحياة الأبديّة يمرّ بلوقيا وصاحبه عفّان الخير بشجرة **القرمل**[98] ذات الصفات العجائبية والتي تعطيهما القوة اللاّزمة كي يستمرّا في رحلتهما[99] ويتحصّلا على الخلود.[100] فهذه الشجرة

97 - وصف الشياطين والجنّ حاضر في سرديات الثعلبي، ونقرأ أنّ إبليس يسكن الأرض السابعة (العرائس، ص7) وقد ذكر الثعلبي أوصافه في باب من أبواب مجلس خلق آدم.

98 - في "الليالي" نتكلّم فقط على عشب من الأعشاب. والقرمل هو «نبات، وقيل شجر صغار ضعاف لا شوك له، واحدته قرملة. قال اللحياني: القرملة شجرة من الحمض ضعيفة لا ذرى لها ولا سترة ولا ملجأ»، هذا ما يقوله صاحب «لسان العرب».

99 - Toujours, selon Eliade, pour atteindre «la quête de l'immortalité» on met en «vedette un arbre aux fruits d'or ou feuillage miraculeux, arbre qui se trouve «dans un pays lointain» (en réalité qui se trouve dans l'autre monde), op.cit. p129

100 - Selon M.Eliade «pour l'homme religieux, la nature n'est jamais exclusivement «naturelle»: elle est toujours chargée d'une valeur religieuse» op.cit. p.101

تخاطب عفّان «**من يأخذني ويقطعني ويدقّني ويعصر مائي ودهني ويطلي به قدميه، فإنّه يخوض البحار السبعة فلا تبتلّ قداماه ولا يغرق. يدقّ عفّان شجرة القرمل ويعصر ماءها ويخرج دهنها ويجعله في كوز للمشي على الماء**»[101].

الطعام السماويّ

هذا العنصر الحاضر في مجموعة من القصص الإسلامية[102] موسوم دائماً بطابع سماوي يعطي للبطل القوّة اللاّزمة كي يتابع رحلته وينشد منشده. ففي بعض الجزر يتحدّث بلوقيا مع الحيتان ويُعلمهم بأنّه جائع وعطشان، ويجيبه الحوت بأنّه سيطعمه **القرص الأبيض** إذا أكله "**سيسير أربعين سنة ولا يعيى ولا ينام ولا يجوع ولا يعطش**"[103]. وفي جزيرة أخرى يجد بلوقيا تحت شجرة عظيمة **مائدة** موضوعة وعليها طعام وحوت مشوي، يحرسها طائر الجنة الذي بعثه الله إلى آدم لمّا أهبط من الجنّة. وكلّ عابر سبيل وغريب يمرّ بها يأكل منها ولا تتغيّر ولا تنقص، كما يقول السرد.

ألف عجيب وغريب

نضع تحت هذا العنوان مجموعة من العناصر المتنوّعة التي لعبت دوراً أساسياً في بناء حكاية بلوقيا. ونبدأ بموضوع الخلود الذي يرمز إليه الحوار القرآني بين آدم وإبليس "بشجرة الخلد" والملك الذي لا يبلى. فالخلود حلم قديم راود شخصيات كثيرة، وهو مذكور في مجموعة من القصص التي تنتمي إلى ثقافات مختلفة. ومن بين أسماء الجنّة "دار الخلود". والبحث الدؤوب عن الخلود وحبّ البقاء غريزة الحياة الدائمة حتىّ في العصر الحديث. فعفّان الخير وبلوقيا يريدان الحصول على **خاتم سليمان** والبقاء على قيد الحياة إلى أن يبعث الله النبي محمدًا. وفي لقائهما الأول طلب عفّان من بلوقيا أن يريه موضع الحيّة تمليخا كي يصيدها راجياً الحصول على ملك عظيم لكي يحيا حياة طيّبة إلى أن يُبعَث النبيُّ محمدٌ.

عنصر آخر يصوّره السرد بطريقة شيّقة وهو **المشي على الماء**[104]، وذلك في معرض وصف شاب يجري على الماء نعرف فيما بعد أنّه الملك **إسرافيل** صاحب الصور. وفي موضع آخر، وكما ذكرنا، يُصوّر الراوي كيف مشى بلوقيا وعفّان على الماء وذلك باستعمال الدهن الذي حصلا عليه وطليا أقدامهما به ثم دخلا في اليمّ ومشيا على الماء وكأنّما يمشيان على الأرض.

---

101 - العرائس، ص 320. وفي سياق آخر يمرّ بلوقيا في بعض الجزر **بشجرة عظيمة** عليها طائر واقف له صفات عجائبية.

102 - من الحكايات المشهورة تلك التي ذكرها الثعلبي في "في مجلس عيسى بن مريم" حيث يصف المائدة التي نزلت على عيسى وقومه وكيفيتها (ص ص 357-358) وفي قصة زكرياء ومريم (ص355) و"الرزق من السماء" الذي ذكره القرآن والذي كان ينزل على مريم. وفي المجلس نفسه نقرأ كذلك خبر "الجفنة السماوية" التي تحوي رغيفين وبعض اللّحم والتي أكل منها الرسول وأحفاده وأزواجه حتّى شبعوا ولم تتغيّر (ص 355) الخ..

103 - العرائس، ص 321

104 - المشي على البحر من الخاصيات المعجزة التي تنسب إلى المسيح. انظر ص 355 "مجلس قصة عيسى بن مريم".

عنصر **الخاتم العجائبي** فاعل بطريقته في تطوير القصة، **فخاتم سليمان**[105]، رمز الملك والقوة، مصنوع من ذهب وفضّة ومن ياقوت أحمر مربّع مكتوب عليه أربعة أسطر في كلّ سطر **اسم الله الأعظم** ويحرسه تنين. فبذكر هذا الاسم نجا بلوقيا من صيحة جبريل ولم ينله مكروه، ومنه استمدّ قوّته. وقد حاول عفّان الحصول عليه ففشل وقتله التنين كما ذكرناه.

هناك خاصيّة أخرى لها حضور في الرحلة وهي **الكلام**، فبلوقيا يتكلّم مع طائر الجنّة ومع الشجر والحيّات والملاك. والكلام، كما نعرف، عنصر قديم مشترك بين مجموعة من المتون السردية الكونية. وخير دليل على ذلك هو عالمية القصص والحكايات التي تستعمل لسان الحيوانات لتمرير خطاب فلسفي أو ديني أو سياسي أو اجتماعي. وفي رحلة بلوقيا تلهج كلّ الكائنات والشخوص بالتسبيح لله وباللّغة العربية.

ويوجد عنصر آخر يتمثّل في **المساعدة**، وهي تتجسّد في الحكاية بأشكال مختلفة. فمثل سائر الأبطال في محنهم يجد بلوقيا مساعدة من طرف مجموعة من الشخوص والحيوانات والملائكة والجنّ وأخيراً الخضر. **وسائل** عديدة قصد الوصول إلى هدفه من المشي على الأقدام والركوب على الفرس الطائر والمشي على الماء الخ... وبمساعدة الشخوص السالفة طُويت لبلوقيا المسافات ووصل إلى أمكنة عديدة.

وأخيراً هناك عنصر **الصيحة** المدمِّرة التي نجدها في مجموعة من القصص القرآني. وعقاباً لعفّان في الرحلة صاح جبريل «**فاختلطت مياه البحر وهاجت والتطمت حتىّ صار كل ماء عذب مالحاً من شدّة صيحته وسقط عفّان على وجهه**»[106].

تعدّد العجيب وتلوّنه

تزداد سمة العجائبي كثافة في الرحلة بواسطة التحوّلات العجائبية المتواترة في السرد والمكرّرة في أكثر من موقع. فقد اعتمد السرد بطريقة متواترة على توظيف الأرقام الأسطورية كألف وبعض مشتقّاته راسماً لوحات عجائبية لبعض العوالم. فالعدد مكوّن من مكونات الغريب والعجيب، وهو أحد العناصر التي تطبع وتثير الانتباه. عدد يتغيّر لكنّه يبقى وفيّاً للمعيار نفسه كما هو الحال في الأمثلة التالية:

- طعام يساعد بلوقيا على المسيرة **أربعين سنة**.

- بين قرنيْ الثور بهموت هناك مسيرة **ثلاثين ألف سنة**.

- وراء جبل "قاف" أربعون دنيا وفي كلّ دنيا **أربعمائة ألف باب**، في كلّ باب أربعمائة ألف.

105 - في قصة سليمان يذكر الثعلبي بعض التفاصيل المتعلقة بهذا الخاتم وفقدانه. أنظر "باب في ذكر غزوة سليمان عليه السلام أبا زوجته الجرادة وخبر الشيطان الذي أخذ خاتمه من يده وسبّب زوال ملكه"، ص ص 287-290

106 - العرائس، ص 217

- حيّة جهنّم طولها مسيرة **ثلاثين سنة** وعرضها مسيرة **عشرين سنة**.

فليست في هذه الأرقام المستعملة لوصف الحيوانات والأشياء مغالاةٌ بقدر ما هي تدخل في رمزية عدديّة. فتعدديّة أعضاء الحيوان ترمز للتمام والكمال الذي يوهم به العدد. فوظيفة العدد من هذا المنظور هي التطرّق إلى عالم الغيب بطريقة تقريبيّة. ويضحي المظهر الرمزي لاصقاً بالاستعمالات العدديّة التي يكرّرها الراوي في مواضع شتّى، وذلك في عالم مجهول (الغيب) حيث تصبح فيه الأرقام غير قادرة على وصفه. فالعدد في هذا السياق لا يشير إلى رقم مضبوط بقدر ما يندرج في عمليّة المقاربة. ولفهم هذا المنطق لابدّ من تقمّص شخصية السامع في القرون الوسطى لنوع هذا القصص العجائبي الذي يوصل الدرسَ الدينيَّ والعبرةَ بواسطة هذه الاستراتيجية. فالأرقام كسبعة ومشتقّاتها وخمسة وألف إلخ، كما تشير إلى ذلك كتب قواميس الرموز، لها تأويلاتها ودلالاتها الخاصّة حسب الثقافات والمعتقدات، لكنّها تبقى مكوّناً من مكوّنات الغريب والعجيب وأحد العناصر التي تثير انتباه المتلقّي. عدد يتغيّر في الرحلة لكنّه يبقى وفيًّا لمعيار الكثرة والرهبة والدرامية والرعب.

في سرديات رحلة بلوقيا تعوّض الكلمة الريشة في رسم لوحات غاية في الرعب حسب الموضوع والعنصر الموصوف. فاللّون، كما هو معروف، عنصر يدخل في عالم الجمال. وتعدّد الألوان وحده يطبع ويبرّر شهرة مخلوق سواء أكان حيواناً أمْ شيئاً آخر. فاللّون نظام رمزيّ وخطاب مركّب، مقياس من مقاييس الجمال أو القبح. وهذا ما لمسناه من خلال أوصاف الثعلبي المتعلّقة بالحيوانات والمكوّنات الأخرى، حيث يصبح اللّون، أحياناً، خطاباً أو لغة تتحدّث عن عظمة الإله ومخلوقاته. وفي السياق نفسه يضع الراوي كذلك المعدن في صلب بعض الأوصاف العجيبة، فمرورًا من الحديد المصقول إلى بياض الفضّة فاصفرار الذهب فلألأة الياقوت. معادن نجدها في وصف **عصفور الجنّة**، وصف ينجم عنه تفاضل وتمايز بين الألوان، ومقياس وصفيّ وتراتبية تبنّاها الرواة القدامى. فهذا التصنيف له لا محالة مرجعيّة ثقافيّة ورمزيّة كانت معهودة في المجتمع الإسلامي الوسيط والتي أمدّت مخيّلة القاصّ، ومعه كلّ مبتدعي هذه الحكايات والأخبار العجيبة، بالمادة السردية والوحدات الإخبارية الغنيّة.

يظهر جليّاً مما سبق أنّ حكاية بلوقيا تتكوّن من معجم عجائبي مشترك بين حكايات وأخبار أخرى. فهناك العوالم الأخروية كالجنّة والنار والأوصاف العجائبية المسطّرة في كتب الحديث، خصوصاً الضعيف منها، وكتب التفسير والقصص والتواريخ والعِبَر. وهناك الوحدات السردية المتعلّقة بوصف الملائكة والجنّ والشياطين والمذكورة بِجِدّة في المتن الأسطوري الإسلامي الكبير الذي يحكي خلق السماء والأرض والإنسان والملاك والجنّ. إضافة إلى الأخبار المتعلّقة ببعض الشخوص الدينية والرمزية كالخضر والوحدات التي ترسم الحيوان العجائبي كبهموت وجبليت وتمليت والحيّة والتنيّن والحوت العظيم وعصفور الجنّة الموزّعة على فضاءات مختلفة سواء في عالم السماء أو في العوالم الأخرى. فهناك تنسيق ووصف مقرونان بأشياء عجائبية نظّمها القاص كالأوصاف التي نقرؤها لجبل قاف والشجر والطعام العجائبي. كلّ هذه العناصر

عرفت تنظيماً وتحويراً لحكايتنا داخل جغرافيّة اختيرت مسرحاً لتجليّات رحلة عجائبيّة تتعايش فيها المسوخ والحيوانات والأماكن كما تلخّصه اللّوحة التاليّة:

الأشخاص	الأمكنة	الجزر والبحار	الأشياء	الحيوانات	الملائكة الجنّ	النباتات الأطعمة
ـ بلوقيا ـ أوشيا (أبو بلوقيا) أم بلوقيا ـ عفّان الخير ـ محمد (نبيّ الإسلام) ـ سليمان ـ الشيخ والشاب والمشاييخ ـ الشاب صالح ـ أبو العباس الخضر ـ الحيوانات المذكورة (انظر قائمة الحيوانات)	ـ مصر ـ الشام ـ بيت المقدس ـ البحار ـ الجبال ـ جهنّم ـ الأراضي ـ الحجاب ـ سدرة المنتهى ـ عالم الجنّة ـ عالم جهنّم	ـ جزر تشبه الجنّة ـ جزر عجيبة ـ جزر عظيمة ـ جزيرة من ذهب ـ البحار السبعة ـ جبل قاف ـ جبل وسط البحر ـ مصر والشام ـ بيت المقدس ـ قبر سليمان ـ الحجاب	ـ التابوت ـ صندوق من خشب ـ أوراق فيها نعت النبيّ محمد ـ خاتم سليمان ـ الذهب ـ الفضّة والألوان	ـ حيّات عظيمة وعجائبية ـ ملكة الحيّات (تمليخا) ـ أسد ـ ذئب ـ كبش ـ حيتان عظيمة ـ عقرب ـ طائر الجنّة ـ فرس عجيب طائر ـ طائر الخضر	ـ جبرائيل ـ إسرافيل ـ ميكائيل ـ عزرائيل ـ الجنّ صخر ـ ملائكة آخرون	ـ شجرة القرمل ـ الشجرة العظيمة ـ قرص أبيض ـ العشب

6- الروح الإسلاميّة وتمثّلات الخطاب الوعظي

الروح الإسلاميّة طاغية في رحلة بلوقيا حيث ثمّة دعوة دائبة للتسبيح والتهليل والبشارة بالرسول محمّد ومعانقة الإسلام. وحدات سرديّة تدلّ على بشائر النبوّة وعلى الآخرة والقيامة والعالم العلوي. فالقارئ يلاحظ اختزال الحدث السردي في القصّة والقفز به مباشرة إلى موطن العبرة المطلوبة. فتنقّلات بلوقيا المدهشة

والغرائبية هي بقدرة الله التي تفلّص من دائرة العجيب وتدخله في نطاق الممكن بالنسبة إلى المتلقّي المؤمن. فالقصّة إجمالاً أنموذج مذهل لحضور خطاب إيماني العقيدة وصوفيّ الاتّجاه يؤكّد على الدعوة إلى الله والعبادة والتسبيح سواء من طرف الحيوان أو الملاك أو الجنّ أو شخوص أخرى، ويصبح الكون كلّه ينضح بآيات الله والجميع يشهد بحضوره.

فالعنصر الديني مهيمن على متن القصة التي تشبّعت به أثناء إنشائها وتكوينها وتطويرها وصُنعت لخدمته. أما العنصر الميثولوجي المنظّم لبنيتها فهو متشبّع بخزّان الإسرائيليات القديمة. وتداخل البنى السردية الدينية والبنى الأسطورية يضع الحكاية في خانة الوعظ والإرشاد. وسنتوقّف عند هذا التداخل من خلال التطرّق لبعض الأفكار الدينية التي تدافع عنها الرحلة والتي نجدها كذلك في الخطاب الصوفي وكتب الحديث والوعظ.

البشارة والقيامة

يصادف متلقّي رحلة بلوقيا منذ البداية ذكر النبيّ محمّد ومواصفاته مكرّرة عدة مرّات، فالإحالات كثيرة واسمه مذكور ومقرون بعبارات متعدّدة أكثر من 30 مرّة وذاك على الشكل التالي:

«نبي اسمه محمد»، «حبّ محمّد»، «شفاعة محمّد»، «نعت محمّد»، «عرفنا محمّدًا»، «محمّد وأمّته»، «زمان محمّد»، «نبيّ من العرب يقال له محمّد»، «لاإله إلاّ الله محمّد رسول الله»، «بعث محمّد»، «دين محمّد» الخ. اسم يتردّد على ألسنة كثيرة وتعرفه جميع الشخوص المختلفة (الحيّات والملك والجنّ والحوت العظيم). والملاحظ أنّ هذه البشارة مقرونة داخل الحكاية بموضوع القيامة، فرصة للراوي ليكشف القناع عن بعض مشاهد القيامة والعالم الأخروي. ونقرأ صفحات عجيبة ووصفاً رهيباً لعالم جهنّم، أفاع ضخمة خلقها الإله لتعذيب الكفّار والآثمين ومعاقبتهم، مشاهد تذكّرنا مرّة أخرى بنص المعراج. فالرحلة مزج بين مقاطع أسطورة الخلق الإسلامية ومشاهد القيامة التي تُروى في كتب المتخيّل الديني الإسلامي كقصص الأنبياء وأخبار أهوال القبور وقصص القيامة والآخرة.[107] فحكاية بلوقيا تقدّم رؤية للكون منذ بداية الخلق إلى القيامة. نقطتان مهمّتان لبناء تاريخ مقدّس يضع خلق الكون بمثابة بداية والقيامة نهايته وبينهما نبوّة محمد. وهذه الفكرة واضحة المعالم في الحكاية يلمّح لها الراوي ويمرّرها بواسطة حوار متكرّر بين الحيوانات والجن والملائكة الذين يعرفون محمّدًا ويصلّون عليه، في حين يجهلون آدم وبني إسرائيل والأنبياء السالفين. فعنصر «النبوّة المحمدية» مظهر جليّ في الحكاية جنّد له السرد كلّ الآليات. فكلّ النبوّات قد دشّنت لظهور الإسلام وتنبّأت به وهذا يحدّد هدف مغامرة بلوقيا: الدفاع على حضور نبوة محمد خاتم الأنبياء والبشارة

107 - سرديات نجدها مثلاً في كتاب التوهّم (للمحاسبي) وكتاب التذكرة (للقرطبي) وفي مجموعة من كتب الحديث وكتب الموضوعات.

بها في التوراة وحذف هذه المعلومة الهامة من طرف أحبار اليهود[108]. فمنذ البداية تدافع القصة على أنّ أحبار اليهود قبل الإسلام كانوا يعرفون هذه النبوّة، لكنهم خبّؤوها! فالسرد بطريقة غير مباشرة لا ينتقد اليهود بصفة عامة وإنّما الأحبار، هذه الفئة الدينية التي تمتلك المعرفة بالنصوص التوراتية والتي تشير إليها الحكاية بأصبع الاتّهام. وهذه النقطة واضحة من خلال القرار والعقاب الذي فكّر فيهما بلوقيا وقومه:

- «**الويل لك يا أبت من الله فيما كتبت وكتمت من الحقّ عن بني إسرائيل**»

- «**يا بلوقيا لولا أنّك إمامنا وكبيرنا لنبشنا قبره وأخرجناه منه وأحرقناه بالنار**».

لكن قرار بلوقيا، منذ البداية، وقبل الدخول في رحلته العجائبية هو إعطاء الأمر التالي:

- «**ألحقوا نعت النبي صلى الله عليه وسلم وأمّته بالتوراة**».

فالصور في الرحلة تتتابع والمشاهد تُصنع والتسبيح يُكرّر. صُورٌ تتكرّر خارج عنصر الزمن، زمن آخر، زمن القيامة والبدايات. زمن الاسترجاع والاستشراف بتقديم الماضي على الحاضر وتقديم المستقبل على الحاضر (ذكر نبوّة محمّد قبل حدوثها)، زمن يؤسّس القصة (القيامة والرؤيا) وينظمّ بنية الخطاب الإلهي (عالم الغيب) الذي له حقّ الاستشراف بالنسبة إلى المؤمن. ونخال أنفسنا وكأنّنا نشاهد فيلماً حول القيامة مخرجه الرئيسي القاصّ الشعبيّ.

كلّ هذه الوحدات التي وضعها الراوي في تقديم الحكاية تكوّن البنية التي تؤسّس حكايتنا والسياق الديني الذي يمكن وضعها فيه وقراءتها من خلاله. فلا يمكن إذن تصوّر نبوّة محمّد خارج إطار النبوّات التوراتية السالفة.[109]

لا يتعامل الثعلبي، الراوي المنظّم لحكاية بلوقيا، مع قصص الأنبياء من زاوية مؤرّخ الأديان، وإنمّا يسردها من خلال موقعه باعتباره واعظًا. فالنقطة الطاغية على سرده هي توصيله لسامعه أو قارئه فكرتين أساسيتين: «قدم بشارة نبوّة محمد واعتبارها أصل النبوات» و«شمولية هذه النبوّة وكونيّتها». فهذه النبوّة الحديثة العهد، خاتمة النبوات حسب المقولة المشهورة، تردّدها الرحلة من أجل ترسيخها في أذهان السامعين المسلمين أوّلاً، والردّ على المكذّبين بها ثانياً. وليس غريباً أن يهتمّ الراوي المنتمي للقرن الخامس الهجري بهذه الأفكار ويعبّر عنها في سردياته أحياناً بطريقة مباشرة وأخرى غير مباشرة.

108 - أدرجت مجموعة من الحكايات في خدمة الدين الإسلامي وتثبيث نبوّة رسول الإسلام في المخيّلة الجماعية حيث جعل منها حدثاً مرتقباً وهو ما دفع بالقاصّ والرواة القدامى إلى جعل السرديات القديمة متأقلمة مع رؤية الدين الجديد وتعاليم الإسلام. انظر مقال عبد الله إبراهيم، الإسلام والسرد، مجلة كلمة (إلكترونية)، العدد 38، يونيو 2010

109 - تتحدّث الحكاية عن شهادة مكتوبة مسطّرة في التوراة!

وستعرف هاتان الفكرتان استخداماً وإقحاماً في سرديات قصص الأنبياء وفي نسج خطابه. ففكرة خاتم النبوّة المتداولة في الخطاب الإسلامي تقابلها عند الثعلبي فكرة «بداية نبوّة محمد وقدمها»، ولإدراك هذه الفكرة فلا بدّ من ربطها بوحدات سردية أخرى ذكرها الثعلبي بداية في متن المجالس الأولى من كتابه العرائس. ففي المجلس الرابع المخصّص «لقصّة خلق آدم» نصادف في بعض الأخبار الأفكار التالية:

كلّ الأنبياء من نور محمّد

تصوّر هذه الفكرة أنّ كلّ الأنبياء انبثقوا وتفرّعوا من نور النبيّ محمد وهي فكرة، كما نعرف، دافعت عنها أخبار وأحاديث وأمداح [110]كما يرويها الثعلبي في الخبر الشيّق:

«... أمر (الله) جبريل عليه السلام أن يأتيه **بالقبضة البيضاء** التي هي قلب الأرض وبهاؤها **ونورها** ليخلق منها محمد (ص) فهبط جبريل عليه السلام في ملائكة الفردوس المقربين الكروبيين وملائكة الصفح الأعلى فقبض قبضة من موضع قبر النبيّ (ص) وهي يومئذ بيضاء نقيّة فعجنت بماء التسنيم وترعرعت حتى صارت كالدرة البيضاء ثم غمست في أنهار الجنّة كلها فلما خرجت من الأنهار نظر الحقّ سبحانه وتعالى إلى تلك الدرة الطاهرة فانتفضت من خشية الله تعالى فقطر منها ألف قطرة وأربعة وعشرون ألف قطرة فخلق الله سبحانه وتعالى من كلّ قطرة نبياً. فكل الأنبياء صلوات الله على نبينا وعليهم من نوره خلقوا (ص)، ثم طيف بها في السماوات والأرض فعرفت الملائكة حينئذ محمداً (ص) قبل أن تعرف آدم.»[111]

وفي موضع آخر نقرأ:

«فلما أتمّ الله خلق آدم عليه الصلاة السلام ونفخ فيه الروح قرطه وشقّه وصوّره وختمه ومنطقه وألبسه من لباس الجنّة وزيّنه بأنواع الزينة يخرج من ثناياه نور كشعاع الشمس **ونور** نبيّنا محمد (ص) في جبينه كالقمر ليلة البدر ثم رفعه على سرير وحمله على أكتاف الملائكة وقال لهم طوفوا به في سماواتي ليرى عجائبها وما فيها فيزداد يقيناً».[112]

محمّد أصل الخلق ودين آدم هو دين محمّد

نقرأ في العرائس:

« أوحى الله تعالى إلى عيسى يا عيسى آمن بمحمد وأمر أمّتك أن يؤمنوا به فلولا محمد ما خلقت آدم ولا الجنّة ولا النار ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلّا الله محمد رسول الله

110 - كما هو الحال في بعض أبيات البوصيري في البردة والهمزية

111 - العرائس، ص 23

112 - االعرائس، ص 24

فسكن.»[113]. ونقرأ في مقطع آخر: «سألت جعفر الصادق أكان آدم زوّج ابنته من ابنه؟ فقال معاذ الله لو فعل ذلك آدم لما رغب عنه رسول الله (ص) ولا كان دين آدم إلا دين نبينّا محمد (ص).»[114]

ونقرأ في موطن آخر:

«...أنّ آدم عليه السلام لما رأى حواء مدّ يديه إليها، فقالت الملائكة: مه يا آدم. فقال: وَلِمَ وقد خلقها الله تعالى لي. فقالت الملائكة حتّى تؤدّي مهرها. قال: وما مهرها؟ قالوا: أن تصلّي على محمّد (ص) ثلاث مرّات. قال: ومن محمّد؟ قالوا: آخر الأنبياء من ولدك ولولا محمّد ما خُلقتَ.»[115]

توضّح الأخبار السالفة المكانة المرموقة والعالية التي يوضع فيها نبيّ الإسلام من بين زمرة الأنبياء السالفين. فالسبق الزمني للأنبياء التوراتيين وغيرهم لا يعني سبقاً في المرتبة والمكانة والقرب من الإله. فمحمد أصبح أوّل الأنبياء وآخرهم في الوقت نفسه. وتعيد الأخبار هذه الفكرة التي تجد حضورها الرمزي والتصويري داخل الإسراء والمعراج من خلال المكانة المتميّزة التي حظي بها محمد داخل كوكبة من الأنبياء. فمثلاً عنصر النور وعلاقته بالنبيّ محمد حاضر في مجموعة من السرديات الإسلامية حيث أصبح في السيرة النبوية من المكوّنات غير العادية لولادة النبيّ محمد.[116] فنحن نصادف منذ أسطورة خلق الكون، التي تفتح سرديات قصص الأنبياء، بعض التلميحات والتعبيرات لهذه النبوّة المصوّرة بطريقة واضحة والتي تجعل من شخص محمد بداية انبثاق التاريخ المقدّس للكون، والعنصر الأساسي الذي يتمحور حوله الكون ومصدر تكوينه ومآله! وهذا هو ما نسمّيه بـ«أسلمة قصص الأنبياء السابقين»، وهي استراتيجية وعظية تبنّاها الثعلبي، وقبله القاصّ الشعبي والرواة القدامى لقصص الأنبياء، استراتيجية تجعل من نبوّة محمد أصلاً جامعاً للنبوّات السالفة ومؤسّسة ومُنظّمة لها. فتكرار التلميح إلى هذه النبوّة في رحلتنا ما هو إلاّ حجّة إضافية لإعطائها مكانتها داخل سلسلة النبوّات، فلا غرابة إذن أن يصبح محمد، داخل هذا المنطق السردي الديني، ومن خلال مغامرة الشاب اليهودي (بلوقيا)، الأب الروحي والرمزي وأصل كلّ النبوّات.

العبرة والحِكَم

طابع الوعظ والإرشاد واضح في ثنايا حكايتنا، والمتلقّي المؤمن والمسلم يجد ديدنه ومبتغاه رابطاً بين القصة وتجربته الشخصية حيث ترسم أفق انتظاره ثنائية «التصديق» و«التكذيب». فهناك إحالات وأخبار كثيرة تصبّ في هذه الثنائية تذكّر الغافل وتجدّد الإيمان وتعرّف بالخالق. والثعلبي نفسه معروف بوصفه

113 - العرائس، ص 22

114 - العرائس، ص 38. وفي ص 37 نقرأ أنّ الخضر حضر جنازة الرسول محمد.

115 - العرائس، ص 25

116 - يذكر ابن هشام في السيرة أخباراً شيّقة متعلّقة بأخبار ولادة النبيّ مثل النور (وفي رواية أخرى الغرّة البيضاء) الذي كان يظهر على وجه عبد الله (أبو الرسول)، والنور الذي خرج من أمّه آمنة عندما حملت به، "نور رأت به قصور بُصرى من أرض الشام" كما نقرأ في سيرة ابن هشام.

واعظًا[117]، وخطابه يجمع بين الترغيب والترهيب كما تحدّده خطبة العرائس.[118] فمُقرّر الخطبة واضح والتوجيهات تساعدنا على إظهار العلاقة بين الرحلة والدرس الديني. نقرأ على رأس صفحة خطبة الكتاب، في الطبعة التي اعتمدناها، ذكر الآية «وكلاً نقصّ عليك من أنباء الرسل»[119] التي تخاطب مباشرة النبيّ محمدًا وهي تمثّل دعامة هامّة لسرديات الثعلبي. فهذا الأخير يقرأ محن النبيّ وسيرته من خلال أحداث الأنبياء السابقين وسيرهم. جلّ القصص القرآني يلمّح للنبي والعبرة حاضرة وراء كل تصوير ومشهد. وقد استعمل القرآن جذر ع/ب/ر/ ما يقرب من عشر مرّات على غرار الآية: «اعتبروا يا أولي الأبصار.»[120] فهناك دعوة للاعتبار بقصص الأمم الغابرة. فالقصة الدينية لا تروى للتذوق والمتعة ولكن للدعوة والوعظ، وهذا الموقف حدّده الراوي المنظم قبل رواية القصص. فهو يفسّر الآية: «وكلاّ نقصّ عليك من أنباء الرسل ما نثبّت به فؤادك» بذكر الحِكم الأساسية التي تتمحور حول مشروع حكي قصص الأنبياء وعلاقتها بنبوّة النبيّ محمد، وهي خمسة أمور:

- الحكمة الأولى: إظهار لنبوته ودلالة على رسالته، وتأكيد على أمّيته.
- الحكمة الثانية: الأسوة والقدوة بمكارم أخلاق الرسل والأنبياء المتقدّمين والأولياء الصالحين.
- الحكمة الثالثة: تثبيتاً له وإعلاماً بشرفه وشرف أمّته.
- الحكمة الرابعة: إنّما قصّ القصص تأديباً وتهذيباً لأمّته.
- الحكمة الخامسة: إحياء ذكر الأنبياء السابقين وآثارهم.

وتذكر الحكمة الأولى والثالثة بجلاء المشروع الذي تدافع عنه رحلة بلوقيا: **إظهار نبوّة محمد والدلالة على رسالته، وتثبيت له وإعلام بشرفه وشرف أمّته**. في حين نستخلص من الأحكام الأخرى المشروع السردي العام للثعلبي والذي يؤكّد أنّ الدرس الديني الأساسي الحاضر في هذه القصص هو التخويف والإنذار والعظة وتثبيت لقلب النبيّ محمد، وزرع الخوف في نفوس معاصريه عن طريق عرض أدبي وتصويري يهزّ العاطفة ويستثير الوجدان.

فمن هذه الزاوية ينبغي أن نقرأ السرد الديني عموماً وحكاية بلوقيا خصوصاً. فأسلوب تصوير الأحداث يحرص بشدّة على أن يكون الخوف والاتّعاظ هما النتيجة التي تعلق بنفس المستمع الأوّل لهذا النوع من

117 - هذا ما يؤكده معظم مترجمي الثعلبي.

118 - القصة باعتبارها قناة لتسريب الخطاب الإسلامي والتأثير في المستمعين. درس ديني وسلوكي ينفذ بسهولة إلى نفوس الناس ويؤثر فيهم.

119 - سورة هود الآية 120

120 - سورة الحشر/2

القصص وكل قارئ مستقبلي. وللتذكير فالقرآن نفسه يلحّ مراراً على وظيفة نبيّ الإسلام ومعارضته وتكذيبه من طرف مشركي قريش.

7- خاتمة

منذ قراءاتنا الأولى لهذه الرحلة تبيّن لنا بعدها الديني والإيماني بامتياز، سواء في البحث عن الخلود (الليالي) أو البشارة واللّقاء بالنبيّ محمد (قصص الأنبياء). رحلة تحمل بعض عناصر الأساطير والأخبار القديمة التي يبدو أنّ رواة القصص الديني القدامى كانوا على دراية بها، فوضعوا ملامحها وهيكلوا خيوط نسيجها السردية وأعادوا تنظيمها وتطويرها داخل إطار ديني إسلامي. تميّزت هذه الحكاية عن أخبار أخرى تدافع عن نبوّة محمد، وساهم في هذا التميّز، بطريقة تكوينها وبمزجها المستمرّ بين ما هو خرافي وواقعي، وما هو ديني وأسطوري. مزج جعلها تجد مكانتها في أجناس وكتابات مختلفة. فعنصر التشويق حاضر جدًا في الحكاية والبطل (بلوقيا) يتنقّل من مكان إلى مكان ومن محطّة إلى محطّة ومن لقاء إلى لقاء. وبهذه الوسيلة طالت الحكاية وتعدّدت الوقائع وكثُر التشويق، وهو ما جعل القارئ ينتظر كيف تتطوّر الأحداث وكيف ينجو البطل.

يمكن إدراج الحكاية في باب السجال الكلامي والسردي الذي ساهم القصّاص والرواة في نسجه. حيث تظهر الأماكن والشخصيات واضحة المعالم ومعروفة من طرف المتلقّي المسلم. فهناك تداخل واع بين عناصر كثيرة وذلك بواسطة عمليّة التحويل والتغيير التي تميّز هذا النوع من السرد ذي الأهداف الوعظية. فالحكاية ذات بنية تخييلية منظّمة ومهيكلة مفتوحة على عوالم الغريب والعجيب ومتون متعدّدة المشارب وعلى خطاب ديني دفاعيّ. فالحكاية، بالرغم من بنيتها التناصيّة وعجائبيتها الغنيّة تدافع، منذ بدايتها، عن فكرة النبوّة المحمديّة. فاسم النبيّ محمد مكرّر عدّة مرات، وكذلك الحال بالنسبة إلى ذكر الشهادة والتسبيح والطاعة والتوحيد والاعتبار، إضافة إلى وصف عوالم النار والجنّة والملائكة والجنّ.

رُويت حكاية بلوقيا، على ما يبدو، قروناً عديدة لأنّها استطاعت بواسطة سردها الشيّق تسريب هذه الأفكار الإسلامية الهامّة وجعل بطلها (الشاب اليهوديّ) أنموذجاً أنطولوجيّاً يُحتذى به في هذا السياق. فالقصّة، وإن كانت أسطورية، فإنّها تحمل نظرة ميتافيزيقية وعقائد إيمانية تعيد بطرقها خطاباً حجاجيّاً دينيّاً.

رُويت الحكاية حسب "إخبار المخبرين ونقل الناقلين"[121]، ودُوّنت حسب شروط المؤسسة الدينيّة الجديدة (بداية الإسلام) وأعيد ترتيب متنها داخل طابع الإسلام حيث أصبح الخزّان الإسرائيلي داعماً للدين الجديد وفي خدمته. كان تدوين هذه الحكاية الدينية مرهوناً بسياق تاريخي ووعظيّ استقبلها واحتفى بها وأشاعها.

121 - مقولة يستعملها الطبري في نقله الأخبار في كتابه "تاريخ الأمم والملوك والرسل".

فإن لم يكن هذا السياق لكان مصيرها الموت على غرار قصص أخرى بقيت في طيّ المشافهة واختفت. إبداع سردي دينيّ، على شاكلة الحكايات الشعبية، لعب في تنظيمه وتبليغه رواة أمثال أبي إسحاق الثعلبي الذي وضعها في مشروعه الكبير: تدوين قصص الأنبياء.

لقد قمنا، من خلال قراءتنا لرحلة بلوقيا، بمحاولات وافتراضات حاولنا تتبّعها كما يتتبّع القاص قصّته. حاولنا الجواب على سؤال إلى أي زمن تعود الروايات الأولى لهذه الحكاية؟ وما هي الأخبار التي استحضرتها؟ لكن القصّة على الرغم من التساؤلات تبقى غامضة البدايات. في حين ظهر لنا أنّ الإسلام الناشئ كان في أمسّ الحاجة إليها للإجابة على تساؤلات وتحديات مستجدّة إبّان مرحلة تكوينه وتوسّعه واستقراره وبناء مغامرته مع السرد الديني.

وتبقى لغة السرد هي الحقيقة الوحيدة التي نملكها. فالحكاية وصلتنا بالعربية، وبهذا المعطى اللغويّ الأساسيّ تشكّلت وبه صوّر القاص المتخيّل الدينيّ بجميع أصنافه وتجليّاته. فبالعربيّة سافرنا في العوالم العلوية وفي متاهات الغريب والعجيب، وبالعربيّة خاطب بلوقيا الجنّ والملاك وحاور الحيّات والحيتان وتكلّم مع الخضر وعصفور الجنّة، وبالعربية عاش ويعيش كلّ متلقّ مغامرات هذا الشاب اليهودي في بحثه عن النبيّ محمّد!

قائمة المراجع:

المراجع بالعربية

- ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، طبعة شعبية، مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. بدون تاريخ
- ابن الجوزي، كتاب القصاص والمذكّرين، بيروت، دار الكتب للملايين، 1986
- ـــــــــــــــــــــــــــ، كتاب الموضوعات، القاهرة، بدون تاريخ.
- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 11 مجلداً، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2001
- ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، بدون تاريخ.
- ابن كثير، قصص الأنبياء، بيروت، دار القلم، 1985
- ابن هشام، السيرة النبوية، مجلدان، بيروت، دار المعرفة، بدون تاريخ.
- إسرئيل أبو ذؤيب، كعب الأحبَار، القدس، 1976: http://muhammadanism.com/Arabic/book/zeev/kaab_al_ahbar.pdf
- الأصفهاني، حمزة، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، بيروت، منشورات دار الحياة،
- ألف ليلة وليلة، القاهرة، مكتبة مصر، 8 أجزاء.
- تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة الصديق بوعلام، دار شرقيات للنشر، 1994
- الثعلبي، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، بيروت، دار الثقافة، بدون تاريخ.
- ـــــــــــــــــــــــــــ، الكشف والبيان في تفسير القرآن، تحقيق علي عاشور، بيروت، نشر دار إحياء التراث العربي، 2002، 10 مجلدات.
- ـــــــــــــــــــــــــــ، قتلى القرآن، دراسة وتحقيق ناصر بن محمد بن عثمان المنيع، الرياض، مكتبة العبيكان، 2008
- الخركوشي، شرف المصطفى، **دار البشائر الإسلامية، مكة، الطبعة الأولى، 1424 هـ/2003**
- خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1421 هـ - 2000 م
- خلف الله، أحمد، الفن القصصي في القرآن، القاهرة، المكتبة الأنجلومصرية، 1953
- الداميري، حياة الحيوان الكبرى، القاهرة، مطبعة العامرية الشرقية، بدون تاريخ، مجلدان.
- الذهبي، الإسرائيليات والتفسير والحديث، القاهرة، الناشر مكتبة وهبة، 1990
- السيوطي، تحذير الخواصّ من أكاذيب القصاص، بيروت، تحقيق محمد الصباغ، المكتب الإسلامي، 1972
- الطبري، تاريخ الأمم والرسل والملوك، 11 مجلداً، دار المعارف، 1967
- طه باقر، كتاب ملحمة جلجامش – بيت الحكمة في عام 1962
- القرطبي، التذكرة بأحوال الموتى الآخرة، دار المنهاج، الرياض، 1425 هـ
- القزويني، زكرياء، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، دار الآفاق الجديدة، 1978

- عبد الله إبراهيم، الإسلام والسرد، مجلة كلمة (إلكترونية)، العدد 38، يونيو 2010
- الكسائي، محمد بن عبد الله، قصص الأنبياء، ليدن، تحقيق أ.أيزنبرغ، 1922-1923
- المحاسبي، كتاب آداب النفوس ويليه كتاب التوهّم، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، 1991
- محمد عبد الحليم عبد الله، الباحث عن الحقيقة، مكتبة مصر، 1998
- مرداس، عبد الباسط، موقع أنفاس.نت (المغرب) http://www.anfasse.org المقالات: سرديات قصص الأنبياء: الراوي، الخطاب والرواية المنظمة، 2007 والمتخيّل الطليق في سرديات قصص الأنبياء، 2009
- نعناعة، رمزي، الإسرائليات وأثرها في كتب التفسير، دمشق، دار القلم، 1970
- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق د مفيد قميح (33 مجلداً) المجلد 14، بيروت دار الكتب العلمية، 2004

المراجع باللغة الأجنبية

- BENCHEIKH, Jamel eddine, **Les mille et une nuits ou la parole prisonnière, Paris, Gallimard, 1988**

- ELIADE, M., Le sacré et le profane, Gallimard, Folio Essai, 1987

- DALLEY, Stephanie, Gilgamesh in the Arabian nights in Journal of the Royal Asiatic Society, serie, 3: 1, 1991, pp.1-17

- DELPEH , François, Salomon et le jeune à la coupole de verre. Remarques sur un conte septiential morisque, in Revue de l'Histoire des Religions, 2006

- Encyclopédie de l'Islam (E.I), 2° édition, Leiden, Brill, articles: 'Abdallah b. Sallâm, Ibn Iyâs.

- LUCE Lopez-Baralt, El Viaje maravilloso de Bulûqiyya a los confines del universo. Edicion, traduccion, estudios, introduction y notes, Madrrid, 2004. ms Escuea de Estudios Arabes, Granada

- KHOURY.R.G., *Les légendes prophétiques dans l'Islam. Depuis le I° jusqu'au III Siècle de l'hégire, d'après le ms d'Abû Rifâ'a 'U.b.W.al-Farîsî: kitâb bad' al-khalq wa qisas al-anbiyâ',* avec édition critique du texte, Wiesbaden, O. Harrassowitz, 1978

- ID; *Wahb b. Munabbih*, Wiesbaden, O.Harrassowitz, 1972.

- KAPPLER, Claude, *Apocalypses et voyages dans l'Au-delà*, éditions du Cerf, 1987

- MILLE ET UNE NUITS, Trad. de l'arabe par Jamel Eddine Bencheikh et André Miquel. Bibliothèque de la Pléiade, 2006

- SIDERSKY, D., *Les Origines des légendes musulmanes dans le Coran et dans les vies des prophètes*, Paris, Geuthner, 1933.

- TABARI, Ta'rîkh Bal'amî, traduction Zotenberg, De la création à David , Paris, réédition de 1984, t.I,

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016

All rights reserved © 2016